مقرر عقيدة (١)

١٦١ عقد

قسم الدراسات الإسلامية

شعبة (٢١٨٣)

قاعة (٣– ١٠٣)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه مذكرة مختصرة في الاعتقاد وضعت بحسب المنهج المعتمد من لدن قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم، وهي تعتمد في نصوصها أولًا على الكتاب والسنة؛ لأن الاعتقاد لا يؤخذ إلا عن الله ورسوله، كما التزمت بالرجوع إلى ما قرره سلف الأمة وأئمتها؛ لأنهم علمهم قبسٌ من مشكاة النبوة.

وقد عمدت إلى نقل نصوصهم بحروفها ليتعود الطالب على فهم كلامهم، ولأن كلام السابقين قليل اللفظ كثير البركة.

وقد جاءت مباحث هذه المذكرة على النحو التالي:

- مقدمة في مفهوم أهل السنة والجماعة، وخصائصهم، ومصادر التلقي عندهم، ومنهجهم في الاستدلال.
- الإيمان بالله، وتضمُّنه لأنواع التوحيد، وبيان كل نوع منها.
- توحيد الربوبية، ونواقضه؛ من أنواع الشرك والإلحاد، وطوائف الملحدين.
- مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، والرد على الانحرافات في هذا الباب.
- توحيد الألوهية، وأساليب القرآن في الدعوة إليه، ومفهوم العبادة وأنواعها، وبيان ما يضاد توحيد الألوهية من الشرك، بأنواعه، وصوره ووسائله.
- أعمال القلوب: (المحبة، الرجاء، الخوف، التوكل، الإنابة، الخشية، المراقبة).
- البدعة؛ مفهومها، وأنواعها، وأحكامها.

وقد رجعت إلى المصادر والمراجع التي أشار إليها المنهج، وهي:

١- شرح العقيدة الطحاوية، للشيخ أبي العز الحنفي.

٢- شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ.

٣- القول المفيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ محمد العثيمين.

٤- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، للشيخ صالح الفوزان.

وغيرها من المصنفات والمصادر العقدية المهمة.

واللهَ تعالى أسأل أن يجعله لوجهه خالصًا، ولسنة نبيه موافقًا.

أهل السنة

تعريفهم، ألقابهم، نشأتهم، مصادرهم، منهجهم في الاستدلال، خصائصهم

أولًا: تعريفهم:

سئل الإمام مالك عن أهل السنة فقال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي»[(١)]. يعني أن أهل السنة ليس لهم اسم ينتسبون إليه سوى السنة، خلافًا لأهل البدع؛ فإنهم تارة ينسبون إلى مقالتهم المبتدعة كالقدرية والمرجئة، وتارة إلى القائل كالجهمية والنجارية، وتارة إلى الفعل كالروافض والخوارج، وأهل السنة بريئون من هذه النسب كلها، وإنما نسبتهم إلى الحديث والسنة[(٢)].

وأجاب الإمام مالك مرة أخرى لما سئل عن السنة؟ فقال: «هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣][(٣)].
فليس لأهل السنة اسم إلا السنة.

وأحيانًا تعرف السنة ببعض أصولها، كما قال سفيان بن عيينة: «السنة عشرة، فمن كن فيه فقد استكمل السنة، ومن ترك منها شيئًا فقد ترك السنة: إثبات القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط، والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله، وعذاب القبر، والبعث يوم القيامة، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين ... ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره ...»، ثم ساق جملًا من أصول اعتقاد أهل السنة[(٥)].

---

(١) «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص: ٣٥) .
(٢) «التنبيهات السنية على الواسطية» (ص١٩) .
(٣) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٧٧) .
(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٥) .
(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٦) .

فالسنة تعرف بأصولها التي تلقاها أهلها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولذلك فإن سلوك طريقهم والدخول في مسلكهم والانتظام في جمعهم مرهون بتحقيق ما دل عليه الكتاب والسنة من أصولهم.

وأحيانًا تعرف السنة بالالتزام بمصادر التلقي المعتمدة عندهم والرجوع إليها في الاعتقاد، قال ابن تيمية: «فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة»[١].

فأهل السنة هم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، قال ابن حزم – رحمه الله –: «وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة – رضي الله عنهم – وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين – رحمة الله عليهم –، ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلًا فجيلًا إلى يومنا هذا، أو من اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها – رحمة الله عليهم –»[٢].

«وإنما سموا أهل السنة (بهذا الاسم) لاتباعهم سنته ﷺ»[٣]، ولأنه «ليس في فرق الأمة أكثر متابعة لأخبار الرسول ﷺ وأكثر تبعًا لسنته من هؤلاء، ولهذا سموا أصحاب الحديث، وسموا بأهل السنة والجماعة»[٤].

مفهوم (السنة) عند السلف:

ولفظ (السنة) في كلام السلف يتناول الاعتقادات والعبادات، ثم خص عند المتأخرين بالاعتقادات.

يقول ابن رجب – رحمه الله –: «السنة: طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات، ثم صار معنى السنة في عرف كثير من العلماء المتأخرين[٥] من أهل الحديث وغيرهم: عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة؛ لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة»[٦].

وكذا قال الألوسي – رحمه الله –: «السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله ﷺ، وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهَدْي والسمت، ثم خصت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٦) .

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ٩٠) .

(٣) «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص: ١٨٩) .

(٤) «التبصير في الدين» (ص: ١٨٥) .

(٥) يلاحظ أن تخصيص مفهوم السنَّة بأصول الاعتقاد بدأ في عصر متقدم؛ فالإمام ابن أبي عاصم (المتوفى سنة ٢٨٧هـ) يعرف السنة بمسائل العقيدة، انظر: «السنة» لابن أبي عاصم (٢/٦٤٥، ٦٤٧) .

(٦) «كشف الكربة» (ص ١١، ١٢) .

السنة من إثبات الأسماء والصفات خلافًا للجهمية المعطلة النفاة، وخصت بإثبات القدر ونفي الجبر خلافًا للقدرية النفاة وللقدرية الجبرية العصاة، وتطلق – أيضًا – على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمياته؛ لأنهم يريدون بمثل هذا الإطلاق التنبيه على أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر كقوله ﷺ: «الحج عرفة»[١]؛ أو لأنه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم، لذلك سمى العلماء كتبهم في هذه الأصول كتب السنة»[٢].

المعنى العام والخاص لأهل السنة:

لفظ (السنة) يطلق بإطلاقين:

١- عام: ويراد به جميع الطوائف والفرق الإسلامية إلا الرافضة.
٢- خاص: ويراد به أهل السنة المحضة الخالصة من أي بدعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير هذا المعنى: «لفظ (أهل السنة) يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة»[٣].

ثانيًا: ألقابهم:

١- أهل السنة: وقد سبق بيانه.

٢- الجماعة: يطلق على أهل السنة لقب (الجماعة)، كما في حديث حذيفة بن اليمان، أنه ﷺ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»[٤]، قال شارح الطحاوية: «والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب (ح ١٩٤٩) ، والترمذي (ح٢٩٧٩) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المناسك (ح٣٠١٥) .

(٢) «غاية الأماني» (٤٢٨/١) .

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٢٢١) .

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح٣٦٠٦) ، ومسلم (ح١٨٤٧) .

(٥) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٤٤) .

ومنهم من خصَّ مفهوم الجماعة بأنهم جماعة الصحابة أو جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فلا يجوز الخروج عليه، وهذا اختيار الطبري، أو المراد: جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمر، وهو الإجماع، أو: جماعة المجتهدين دون غيرهم من الناس، وهو اختيار البخاري، أو المراد: السواد الأعظم من أهل الإسلام[١]، وكل هذه المعاني حق.

ثم خص لفظ الجماعة بالاجتماع على مسائل الاعتقاد، قال الإمام أبو حنيفة: «الجماعة أن تفضل أبا بكر وعمر وعليًّا وعثمان، ولا تنتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا تكفر الناس بالذنوب وتصلي على من يقول لا إله إلا الله، وخلف من قال: لا إله إلا الله»[٢]. فالإمام أبو حنيفة يعرف الجماعة ببعض مبادئها التي شذ عنها المبتدعة.

وأما سبب تسميتهم بالجماعة؛ ففيه أقوال، منها:

١- أن الجماعة في اللغة هي الاجتماع، وضدها الفرقة[٣]؛ ومن أصول أهل السنة الاعتصام بحبل الله جميعًا، وعدم التفرق والتنازع، وفي المعنى روى البخاري عن عليٍّ ﷺ قال: «اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة»[٤].

قال ابن حجر: «قوله: «فإني أكره الاختلاف» أي: الذي يؤدي إلى النزاع. قال ابن التين: يعني مخالفة أبي بكر وعمر، وقال غيره: المراد المخالفة التي تؤدي إلى النزاع والفتنة، ويؤيده قوله بعد ذلك: حتى يكون الناس جماعة»[٥].

ولهذا المعنى سمي العام الذي تنازل فيه الحسن لمعاوية – رضي الله عنهما – عام (الجماعة)، قال ابن بطال: «سلم الحسن لمعاوية الأمر وبايعه على إقامة كتاب الله وسنة نبيه ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس، فسميت سنة الجماعة لاجتماع الناس وانقطاع الحرب»[٦].

٢- ولأن من أصولهم طاعة من ولاه الله أمرهم بالمعروف، وبهذا المعنى روى الطبري بسنده أن عمرو بن حريث سأل سعيد بن زيد قال: «فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ؛ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»[١].

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٧) .
(٢) «الانتقاء» (ص: ١٦٣) .
(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/١٥٧) .
(٤) أخرجه البخاري (ح٣٧٠٧) .
(٥) «فتح الباري» (٧/٧٣) .
(٦) «فتح الباري» (١٣/٦٣) ، وانظر: «تاريخ خليفة بن خياط» (ص: ٢٠٣) ، «معالم السنن» (٤/٣١١) .

٣- أو لأنهم سلموا من تكفير بعضهم بعضًا فـ«أهل السنة لا يكفر بعضهم بعضًا، وليس بينهم خلاف يوجب التبرؤ والتكفير، فهم إذًا أهل الجماعة القائمون بالحق، والله تعالى يحفظ الحق وأهله، فلا يقعون في تنابذ وتناقض، وليس فريق من فرق المخالفين إلا وفيهم تكفير بعضهم لبعض وتبرؤ بعضهم من بعض كالخوارج والروافض والقدرية؛ حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضًا»[٢].

و(السنة والجماعة) لفظان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فإذا اجتمعا وقيل: (السنة والجماعة)، فيراد بالسنة: طريقة الرسول ﷺ، وبالجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان.

وإذا افترقا بأن ذكر أحدهما فقط دخل فيه الآخر، وصار معناهما واحدًا.

٣- السلف الصالح: ومفهوم السلف يطلق بإطلاقين:

الأول: تاريخي، ويراد به أهل القرون الثلاثة المفضلة المشار إليهم في حديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٣]، فيختص بالصحابة والتابعين وأتباع التابعين، من أهل القرون الثلاثة الوارد ذكرهم في الحديث.

والثاني: موضوعي، ويراد به كل من قال بما في الكتاب والسنة والإجماع، فيدخل فيهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، وسلك سبيلهم من الخلف[٤]. وكلا المعنيين حق.

٤- أهل الحديث والأثر: قال اللالكائي – رحمه الله -: «كل من اعتقد مذهبًا فإلى صاحب مقالته التي أحدثها ينسب، وإلى رأيه يستند، إلا أصحاب الحديث، فإن صاحب مقالتهم رسول الله ﷺ فهم إليه ينتسبون، وإلى علمه يستندون، وبه يستدلون، وإليه يفزعون، وبرأيه يقتدون، وبذلك يفتخرون، وعلى أعداء سنته بقربهم منه يصولون، فمن يوازيهم في شرف الذكر، ويباهيهم في ساحة الفخر وعلو الاسم؟!»[٥].

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/٤٤٧).

(٢) «الفرق بين الفرق» (ص: ٣٦١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح٤٦٢٩)، ومسلم (ح٢٥٣٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/٣٥٥).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٢٤).

ويقول ابن تيمية: «ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم: كل من كان أحقَّ بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرًا وباطنًا، واتباعه باطنًا وظاهرًا، وكذلك أهل القرآن»[١].

٥- الفرقة الناجية: وهو مأخوذ أيضًا من مفهوم حديث الافتراق المشهور، وهو حديث أبي هريرة ﷺ وغيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢]. وفي رواية: «كلها في النار، إلا واحدة وهي: الجماعة»[٣][٤]. وفي رواية: قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «الجماعة»[٥]. وفي رواية: قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[٦].

وهذا يقتضي بمفهومه أن أهل السنة والجماعة المتبعين للنبي ﷺ وأصحابه هم الفرقة الناجية دون من سواهم، قال ابن تيمية: «ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء»[٧]. وقال أيضًا: «أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ»[٨].

وإذا قيل: الفرقة الناجية فلا يلزم منه أن كل من خالفها فهو هالك؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكًا، فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٩٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في «المسند» (٨٣٩٦)، والدارمي (٢/٢٤١) ، والحاكم (١/١٢٨) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في «الشريعة»: ص ١٨.

(٣) أخرجها ابن ماجه (٣٩٩٣) .

(٤) انظر: أبو داود (ح٤٥٧٣)، والدارمي (٢/٢٤١)، وأحمد (٤/١٠٢)، والحاكم (١/١٢٨)، والآجري في «الشريعة» ص ١٨، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/١٢٨).

(٥) أخرجها ابن ماجه (٣٩٩٢) .

(٦) أخرجها الترمذي (٢٦٤١) .

(٧) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٥-٣٤٦) .

(٨) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٧) .

ذلك نجا في هذا الاعتقاد، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيًا وقد لا يكون ناجيًا، كما يقال: من صمت نجا»[١].

٦- الطائفة المنصورة: أهل السنة هم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[٢].

وستبقى هذه الطائفة «ظاهرة بالحجة والبيان واليد والسنان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»[٣]، وهم داخلون في قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]؛ فهم منصورون، والعاقبة لهم.

ثالثًا: نشأتهم:

«إن أهل السنة والجماعة هم الامتداد الطَّبيعي للمسلمين الأوائل الذين تركهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ولا نستطيع أن نحدد لهم بداية نقف عندها كما نفعل مع باقي الفرق، والسؤال عن نشأة أهل السّنة والجماعة ليس له موضع، كما هو الحال إذا تساءلنا عن منشأ الفرق الأخرى»[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وطريقتهم -أي أهل السنَّة- هي دين الإسلام، لكن لما أخبر النبي ﷺ: أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة[٥]، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنَّة والجماعة»[٦].

لذلك فلا وجه للسؤال عن نشأتهم، كما يسأل عن نشأة الفرق؛ لأن مذهبهم هو مذهب الصحابة الذين تلقوه عن رسول الله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -في الرد على من يربط نشأة أهل السنة ببعض أعلام الأمة-: «ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنّة والجماعة.. وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة.. فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولًا؛ بل إن السنّة كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها، وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم (ح١٩٢٠) عن ثوبان ﷺ.

(٣) «الجواب الصحيح» (٥/ ٩٢) لابن تيمية.

(٤) «نظام الخلافة في الفكر الإسلامي» ص ٢٩٢.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) « مجموع الفتاوى» (١٥٩/٣) .

المحنة.. وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر[١] فصار إمامًا من أئمة السنّة، وعلمًا من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها، واطلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيًا»[٢].

ولهذا نرى الإمام اللالكائي – رحمه الله – يفتتح كتابه القيّم: «شرح أُصول اعتقاد أهل السنة» بذكر أئمة السنَّة الذين ترسموا بالإمامة بعد رسول الله ﷺ، فيبدأ بذكر أبي بكر والخلفاء الثلاثة بعده، وبقية أئمة العلم والدين من الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى زمنه — رحمه الله –، وقد ذكر كثيرًا من أئمة أهل السنّة في معظم الأمصار الإسلامية[٣].

أما الأصل في تسميهم بأهل السنَّة فهو ما ورد من النصوص التي تأمر باتباع السنَّة، ولزوم الجماعة، فالتسمية مأثورة في السنَّة وواردة في كلام السلف.

رابعًا: مصادر أهل السنة:

قال الإمام البيهقي: «فأما أهل السنَّة فمعولهم فيما يعتقدون الكتاب والسنَّة»[٤].

فالمصدر الأول في التلقي عند أهل السنة هو كتاب الله، وأحسن الطرق في تفسيره وفهمه: تفسير القرآن بالقرآن، وإلا فبالسنَّة، وإلا فبالصحيح من أقوال الصحابة، وإلا فبما أجمع التابعون عليه[٥].

والمصدر الثاني «السنَّة»، وهي المبينة للكتاب؛ إذ هي سنّة المعصوم رسول الله ﷺ وليس لأحد عصمة بعده ﷺ، وقد تلقى الصحابة – رضوان الله عليهم – ما جاء به ﷺ ونقلوه إلى الأمة.

ويتمثل وجود السنَّة في دواوين الإسلام المعروفة والمشهورة مثل صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وسنن الدارمي، وموطأ مالك، ومثل المسانيد المعروفة كمسند الإمام أحمد وغيره، إلى غير ذلك من مدونات الحديث النبوي والتي هي أشهر من أن يعرف بها.

وهناك مدونات خاصة بالعقيدة اقتصر جامعو أحاديثها على مسائل الاعتقاد.

---

(١) «منهاج السنة» (٤٨٢/٢، ٤٨٣).

(٢) المصدر السابق: (٤٨٦/٢) .

(٣) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٣١) .

(٤) «مناقب الشافعي»: ص ٤٦٢.

(٥) راجع في هذا الموضوع مقدمة التفسير لابن تيمية في «الفتاوى»: (٣٦٣/١٣) وما بعدها.

ولعل أول من قام بذلك الإمام حماد بن سلمة المتوفي سنة ١٦٧هـ وقد قارب الثمانين. قال الذهبي: «هو أول من صنف التصانيف مع ابن أبي عروبة»[١]، كما جمع أيضًا الأحاديث والآثار المروية في عقائد أهل السنة طائفة من الأئمة منهم:

- عبدالرحمن بن مهدي[٢]، المتوفى سنة ١٩٨هـ. الذي قال فيه الإمام الشافعي: «لا أعرف له نظيرًا في الدنيا» يعني في زمنه، وقال علي بن المديني «أعلم الناس بالحديث عبدالرحمن بن مهدي».

- وكذلك عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، شيخ الإسلام بسمرقند صاحب المسند العالي، والتفسير، والجامع[٣]، والذي حدث عنه مسلم وأبو داود والترمذي والمتوفى سنة ٢٥٥هـ.
- وعثمان بن سعيد الدارمي الحافظ محدث هراة وأحد الأعلام الثقات صاحب كتاب «الرد على الجهمية» و«الرد على بشر المريسي» والمسند، توفي سنة ٢٨٠هـ[٤].
- وأبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ المعروف بـ«الأثرم» الحافظ الكبير صاحب الإمام أحمد، قال الذهبي صنف التصانيف، له كتاب نفيس في السنن يدل على إمامته وسعة حفظه[٥].
- وأبو عبدالرحمن عبدالله بن أحمد بن حنبل الإمام الحافظ الحجة صاحب كتاب السنة المتوفي سنة ٢٩٠هـ[٦].
- وأبو بكر أحمد بن محمد بن هارون المشهور بالخلال صاحب كتاب «السنة» و«الجامع»، توفي سنة ٣١١هـ[٧].
- وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ين مطير الطبراني صاحب «المعجم الكبير»، و«المعجم الأوسط» و«المعجم الصغير» وكتاب «السنة» و«دلائل النبوة» و«الرد على الجهمية» و«التفسير»، توفي سنة ٣٦٠هـ[٨].
- وأبو محمد عبدالله بن محمد المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني حافظ أصبهاني وإمامها والمحدث الثقة، والمفسر المشهور صاحب كتاب «العظمة» أو «عظمة الله ومخلوقاته»

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٢٠٢/١.

(٢) انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: ٢٧٩/٦.

(٣) ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٣٥٤/٢، تهذيب التهذيب: ٢٩٤/٥-٢٩٦، وانظر: تاريخ التراث فؤاد سيزكين: ١٧٢/١.

(٤) ترجمته في طبقات الشافعية: ٣٠٢/٢، مرآة الجنان: ١٩٣/٢، تاريخ التراث: ٣٧٠/٢، ٣٧١.

(٥) انظر: تذكرة الحفاظ: ٥٧٠/٢-٥٧١، تاريخ بغداد: ١١٠/٥، ١١٢، شذرات الذهب: ١٤١/٢-١٤٢ تاريخ التراث: ٢٠٩/٢.

(٦) انظر: طبقات الحنابلة: ١٨٠/١، تهذيب التهذيب: ١٤١/٥، ١٤٣، تاريخ التراث: ٢٠٠/٢.

(٧) انظر: تذكرة الحفاظ: ٧٨٦/٣، البداية والنهاية: ١٤٨/١١، تاريخ بغداد: ٣١٢/٥-٣١٣، تاريخ التراث ٢١٢/٢.

(٨) انظر: وفيات الأعيان: ٤٠٧/٢، تذكرة الحفاظ: ٩١٢/٣، النجوم الزاهرة: ٥٩/٤-٦٠، تاريخ التراث: ٢١٨/١.

وغيره[١]، توفي سنة ٣٦٩هـ.

- وأبو بكر محمد بن الحسين الآجري مصنف كتاب «الشريعة» و«التصديق بالنظر إلى الله في الآخرة» توفي سنة ٣٦٠هـ[٢].
- وأبو الحسن علي بن عمر الدارقطني، الإمام شيخ الإسلام والحافظ الشهير صاحب السنن، ومصنف كتاب «الصفات» و«أحاديث الصفات»، و«أحاديث النزول» و«فضائل الصحابة ومناقبهم» و«ما ورد من النصوص المتعلقة برؤية الباري سبحانه» وغيرها، توفي سنة ٣٨٥هـ[٣].
- وأبو عبدالله محمد بن الشيخ أبي يعقوب إسحاق بن الحافظ أبي عبدالله محمد بن أبي زكريا يحيى بن منده الأصفهاني، الذي تلقى العلم من ١٧٠٠ شيخ في أقطار العالم الإسلامي ومن آثاره: «كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاه» و«الرد على الجهمية» وغيرها، توفي سنة ٣٩٥هـ[٤].
- وأبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، الإمام الحافظ الفقيه، ومحدث بغداد، وصاحب كتاب السنة والسنن المتوفى سنة ٤١٨هـ[٥].
- وأبو عبدالله عبيدالله بن محمد العكبري المعروف بابن بطة صاحب «الإبانة الكبرى»، و«الإبانة الصغرى»، توفي سنة ٣٨٧هـ[٦].
- وأبو عمر أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكي، عالم أهل قرطبة، والذي روى عنه أبو عمر بن عبدالبر وأبو محمد بن حزم، والذي كان —كما يقول ابن بشكوال — سيفًا مجردًا على أهل الأهواء والبدع قامعًا لهم، غيورًا على الشريعة، وكان —كما يقول الذهبي — حافظًا للسنن إمامًا عارفًا بأصول الديانة، ذا هدى وسمت واستقامة، توفي سنة ٤٢٩هـ[٧].
- وأبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني، الحافظ الكبير، محدث العصر، مصنف «حلية الأولياء» و«المعتمد» و«فضائل الصحابة» و«دلائل النبوة» وغيرها، والمتوفى سنة ٤٣٠هـ[٨].
- وأبو ذر عبدالله بن أحمد بن محمد الأنصاري الهروي، الإمام العلامة الحافظ صاحب كتاب

---

(١) انظر: طبقات الحفاظ: ٩٤٥/٣، النجوم الزاهرة: ١٣٦/٤، شذرات الذهب: ٦٨/٣، تاريخ التراث: ٣٢٦/١.

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ: ٣٩٦/٣، تاريخ بغداد: ٢٤٣/٢، البداية والنهاية: ٢٧٠/١١، تاريخ التراث: ٣١٤/١.

(٣) انظر: تاريخ بغداد: ٣٤/١٢، تذكرة الحفاظ: ٩٩١/٣، غاية النهاية ص (٥٥٨) ، تاريخ التراث ٥٠٩/١.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ: ١٠٣١/٣، لسان الميزان: ٧٠/٥-٧٢، الوافي بالوفيات: ١٩٠/٢-١٩١، تاريخ التراث: ٣٥٣/١.

(٥) انظر: تاريخ بغداد ٧٠/١٤-٧١، تذكرة الحفاظ: ١٠٨٣/٣، وانظر: تاريخ التراث: ١٩٤/٢، فهرس المخطوطات للألباني: ص ٣٨٤.

(٦) انظر: طبقات الحنابلة: ١٣٤/٢-١٥٣، المنهج الأحمد ص ٦٩-٧٣ (وسماه فيه عبدالله) .

(٧) انظر: تذكرة الحفاظ: ١٠٩٨/٣، الديباج المذهب ص ٣٩-٤٠، بغية الملتمس: ص١٥١، شذرات الذهب: ٢٤٣/٣-٢٤٤.

(٨) انظر: تذكرة الحفاظ: ١٠٩٢/٣، لسان الميزان، ٢٠١/١، ٢٠٢، البداية والنهاية: ٤٥/١٢.

«السنة والصفات» و«الجامع» و«دلائل النبوة» توفي سنة ٤٣٤هـ[١].

- وأبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان، والذي قال فيه الذهبي: «عمل كتبًا لم يسبق إلى تحريرها»، منها: «الأسماء والآثار» و«شعب الإيمان» و«دلائل النبوة» و«السنن الصغيرة» و«البعث والمعتقد» وغيرها، توفى سنة ٤٨٥هـ وغيرهم. هذه طائفة من مصنفات الأئمة آثارهم تؤكد وحدة اعتقادهم لاعتمادهم[٢] على المأثور عن الرسول ﷺ.

ومما تنبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه أنه — كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -: «قد يقع في هذه المصنفات من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه أهل المعرفة، وقد يروي كثير من الناس في الصفات وسار أبواب الاعتقادات وعامة أبواب الدين أحاديث كثيرة تكون موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ»[٣].

وقد أقام الله سبحانه من يحفظ سنَّة نبيه ويعنى بتمييز صحيحها من غيره ويضع المقاييس والضوابط لذلك، وقامت دراسات دقيقة ومحكمة لمتون الأحاديث وأسانيدها حتى تحققت معرفة الأحاديث الصحيحة من غيرها، واطمأن المسلمون على سنّة نبيهم، وهذا تحقيق وعد الله بحفظ كتابه؛ لأن السنة هي المبينة للكتاب، وتحقيق لوعد رسول الله ﷺ بأنه «لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله»؛ لأنه لا بقاء لها على الحق إلا بحفظ الله لمصادر التلقي لها.

ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه لعرفوا أنه قد حرف عن موضعه، كما وقع مثل ذلك للإمام محمد ابن إسماعيل البخاري حين ورد إلى بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال: لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح وردّ كل متن إلى سنده[٤].

والإجماع هو الأصل الثالث عندهم في تلقي الاعتقاد، والمقصود إجماع السلف؛ لأنه بعدهم كثر الاختلاف وتفرق الناس، ولهذا قال الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم»[٥]. والأمة لا تجمع على ضلالة، وقد يخطئ بعض

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ: ١١٠٣/٣، تاريخ التراث: ٣٨٨/١.

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ: ١١٣٢/٣، طبقات الشافعية: ٨/٤-١٦، مرآة الجنان: ٨١/٣-٨٢، شذرات الذهب: ٣٠٤/٣-٣٠٥.

(٣) «عقيدة أهل السنة»، لابن تيمية، بتعليق الشيخ عبدالرزاق عفيفي: ص ٢٠.

(٤) انظر: «هدي الساري»: ص ٤٨٦، «مقدمة ابن خلدون»: (٩/٣، ١٠) . قال الصنعاني في «توضيح الأفكار» عن قصة البخاري مع علماء الحديث في بغداد، (وهي مشهورة أخرجها ابن عدي عن مشائخ البخاري، وأخرجها أبو بكر الخطيب في «التاريخ» في غير موضع وساقها الحافظ ابن حجر في نكته على ابن الصلاح بإسناده) . «توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار» (ص ١٠٣ — ١٠٤) .

(٥) «أصول السنة» لأحمد بن حنبل (ص: ١٤) .

الأئمة؛ إذ لا عصمة إلا لرسل الله، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب الوحي، ولكن لا يجمعون على خطأ بحمد الله.

العلاقة بين العقل والنقل:

العقول لا تستقل بمعرفة أصول الدين على سبيل التفصيل لعجزها وقصورها، ولو كانت تستقل لما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب[١]، قال شارح الطحاوية: «لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه. ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين»[٢].

قال السفاريني: «العقول لو كانت مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه، لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب، واللازم باطل بالنص، قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} [طه: ١٣٤]، فكذا الملزوم»[٣].

وقال ابن القيم: «إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق فلو وزن عقله بعقولهم لرجح بها كلها، وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب. فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى٥٢] وقال تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى} [الضحى٧ ، ٦]، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر الشورى، فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} [سبأ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام وفراش الألباب الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الأنبياء: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} [مريم٩٠ ، ٨٩]»[٤].

---

(١) أما القياس والاستحسان والذوق والكشف والنظر فليست مصادر لتلقي الاعتقاد.

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٦) .

(٣) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٠٥) .

(٤) «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (٢/ ٧٣٤-٧٣٥) .

أما على سبيل الإجمال فإن عامة أصول الدين الكبار مما يعرف بالعقل كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واعلم أن عامة مسائل أصول الدين الكبار؛ مثل الإقرار بوجود الخالق وبوحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وعظمته والإقرار بالثواب وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما يعلم بالعقل، قد دل الشارع على أدلته العقلية»[١]؛ «لأن العقل الصريح لا يتصور أن يخالف النقل الصحيح»[٢].

خامسًا: منهج أهل السنة في الاستدلال:

ومنهج الاستدلال عند أهل السنة والجماعة يقوم على القواعد التالية:

١- يعتمد أهل السنة في تلقي الاعتقاد على الكتاب والسنة؛ وذلك لأن العقيدة توقيفية؛ فلا تثبت إلا بدليل من الشارع، ولا مجال فيها للرأي والاجتهاد، قال شارح الطحاوية: «الواجب كمال التسليم للرسول -صلى الله عليه وسلم-، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولا، أو يحمله شبهة أو شكا، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول»[٣].

٢- قبول كل ما صح عن الرسول ﷺ والاحتجاج به سواء أكان متواترًا أم آحادًا، وسواء كان في العقائد أو في الأحكام، خلافًا لجمهور المتكلمين الذين يردون أخبار الآحاد في الاعتقاد، قال شارح الطحاوية: «خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع»[٤]، وقال الشافعي: «إذا حدث الثقة عن الثقة حتى ينتهي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو ثابت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا نترك لرسول الله حديثا أبدًا»[٥]. وحكى الإجماع على ذلك الإمام ابن عبد البر حيث يقول: «أجمع أهل العلم من أهل الفقه والأثر في جميع الأمصار فيما علمت على قبول خبر الواحد العدل وإيجاب العمل به إذا ثبت ولم ينسخه غيره من أثر أو إجماع، على هذا جميع الفقهاء في كل عصر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا إلا الخوارج وطوائف من أهل البدع شرذمة لا تعد خلافًا»[٦]. وقال الخطيب البغدادي: «وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين، في سائر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٣٠) .

(٢) «جامع المسائل» لابن تيمية (١/ ٦٤) .

(٣) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٢٨) .

(٤) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٠١) .

(٥) «الأم» للشافعي (٧/ ٢٠١) .

(٦) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (١/ ٢) .

أمصار المسلمين إلى وقتنا هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار لذلك ولا اعتراض عليه، فثبت أن من دين جميعهم وجوبَه؛ إذ لو كان فيهم من كان لا يرى العمل به لنقل إلينا الخبر عنه بمذهبه فيه»(١).

٣- إيمانهم بجميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمنون بالنصوص كلها، ويردون المتشابه إلى المحكم، والمجمل إلى المبين، ويجمعون بين نصوص الوعد والوعيد والنفي والإثبات، والعموم والخصوص، ويقولون بالنسخ في الأحكام ونحو ذلك، ولا يأخذون ببعض الوحي ويردون بعضه كشأن المرجئة الذين أخذوا بنصوص الوعد دون نصوص الوعيد، وكحال الخوارج الذين أخذوا بنصوص الوعيد دون نصوص الوعد، وأمثالهم.

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – أن لأهل البدع طريقين في رد السنن؛ أحدهما: ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن، الثاني: جعلهم المحكم متشابها ليعطلوا دلالته، ثم قال: «وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالشافعي والإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق فعكس هذه الطريق، وهي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم، وتوافق النصوص بعضها بعضًا، ويصدق بعضها بعضًا، فإنها كلها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره»(٢).

٤- اعتقادهم بأن الرسول ﷺ بلغ الدين كله أصوله وفروعه، وقد أكمل الله سبحانه لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينًا: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}.

وتركنا – صلوات الله وسلامه عليه – على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك —كما قال ﷺ: «تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»(٣).

قال أبو الدرداء: «صدق الله ورسوله فقد تركنا على مثل البيضاء»(٤).

ولذا قال الإمام الشافعي: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»(١).

(١) «الكفاية في علم الرواية» (ص: ٣١) .

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٢٠٩-٢١٠) .

(٣) جزء من حديث رواه ابن ماجه (ح٥)، وأحمد في مسنده (١٢٦/٤)، والحاكم في مستدركه (٩٦/١)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (٢٦/١) وروى عدة روايات في هذا المعنى صحح الألباني أكثرها.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٢٦/١).

ويقول ابن حزم: «قد بلغ الرسول ﷺ الدين كله، وبينه جميعه كما أمره الله تعالى»[٢]، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}. وهذا أمر معلوم من الإسلام بالضرورة «فإن هذا الأصل – أي بيان الرسول ﷺ للدين أصوله وفروعه باطنه وظاهره علمه وعمله – هو أصل أصول العلم والإيمان وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملًا»[٣].

٥– اعتمادهم على تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، ويعتمدون معاني لغة العرب؛ لأنها لغة القرآن والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له»[٤]، ويردون ما يخالف ذلك من التحريفات الفاسدة الباطلة لنصوص الكتاب والسنة التي سموها تأويلًا لتروج وتقبل، قال ابن القيم: «فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد»[٥].

وهذا التأويل الفاسد لنصوص الكتاب والسنة هو رأس الشرور وأساس ضلال من ضل عن الحق، وانحرف عن الصراط المستقيم، يقول ابن أبي العز: «وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد! وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين رضي الله عنه، والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد؟!»[٦].

٦– اعتمادهم على تفسير الصحابة، وفهمهم للنصوص وأقوالهم وأعمالهم وآثارهم؛ لأنَّهم أصحاب رسول الله ﷺ وهم أفضل الأمة وأزكاها، وعاشوا وقت تنزل الوحي وأعلم الأمة باللغة ومقاصد الشرع.

٧– التسليم بكل ما جاء عن الله ورسوله، قال الإمام الشافعي: «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»[٧]، وما اشتبه عليهم علمه،

---

(١) «الرسالة» (ص٢٠).

(٢) «المحلى» (٢٦/١).

(٣) «معارج الوصول إلى معرفة أن أصول الدين وفروعه بينها الرسول ﷺ» (ص٢)، وانظر: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» (١٣/١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٦٣) .

(٥) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٨٧) .

(٦) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٠٨–٢٠٩) .

(٧) «لمعة الاعتقاد» (ص: ٧) .

أو علم كيفيته، (كبعض نصوص الغيبيات والقدر) يسلمون به ويردون علمه إلى الله سبحانه وتعالى ولا يخوضون فيه، قال الإمام الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان»(١). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما أخبر به الرسول عن ربه – عز وجل – فإنه يجب الإيمان به، سواء عرفنا معناه أو لم نعرف؛ لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها، مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصًا في الكتاب والسنة، متفقًا عليه بين سلف الأمة.

وما تنازع فيه المتأخرون، نفيًا وإثباتا، فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحدًا على إثبات لفظ أو نفيه، حتى يعرف مراده، فإن أراد حقًّا قُبل، وإن أراد باطلا رُدَّ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يُقبل مطلقًا ولم يُرد جميع معناه، بل يُوقف اللفظ ويُفسّر المعنى، كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك»(٢).

٨– التعبير عن حقائق الإيمان بالألفاظ الشرعية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن، أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع»(٣).

٩– إيمانهم بأنه لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، بل يصدق أحدهما الآخر ويشهد أحدهما بصحة الآخر، وما يتوهمه أهل الأهواء من التعارض بين العقل والنقل فهو من عجز عقولهم وقصورها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وأن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه»(٤)، وقال شارح الطحاوية: «وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته – مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول – فقد ضاهى إبليس، حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي

(١) «متن الطحاوية» بتعليق الألباني (ص: ٤٣) .

(٢) «التدمرية» (ص: ٦٥– ٦٦) .

(٣) «النبوات» لابن تيمية (٢/ ٨٧٦) .

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٦٤) .

مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]»[١]. و«عمدة من يخالف السنة احتجاجهم بقياس فاسد، أو نقل كاذب، أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله، وكان من إلقاء الشيطان»[٢]. ولذا قال ابن القيم:

فإذا تعارض نص لفظ وراد والعقل حتى ليس يلتقيان

فالعقل إما فاسد ويظنه الرائي صحيحًا وهو ذو بطلان[٣]

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع»[٤].

١٠- الرجوع عند التنازع إلى الله ورسوله، قال تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: ٥٩]، «قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد موته هو الرد إلى سنته»[٥].

قال الحافظ ابن كثير: «هذا أمر من الله عز وجل، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة»[٦]. وقال الإمام الشوكاني: «اتفق المسلمون سلفهم وخلفهم من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا -وهو القرن الثالث عشر منذ البعثة المحمدية- أن الواجب عند الاختلاف في أي أمر من أمور الدين بين الأمة المجتهدين هو الرد إلى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-»[٧].

١١- نفي التعارض بين نصوص الكتاب والسنة، فلا يمكن أن تتعارض نصوص الشرع الثابتة، لأنها من عند الله، قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، يقول الإمام الشاطبي: «على الناظر في الشريعة ... أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جارٍ على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادئ الرأي

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٤٢) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٦٨) .

(٣) «الكافية الشافية» (ص: ١٥٤) .

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٤٧) .

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٦).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٥).

(٧) «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» (ص: ٣).

إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله تعالى قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسلِّم من غير اعتراض»[١].

وقال الإمام ابن القيم: «وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه، ليس أحدهما ناسخًا للآخر، فهذا لا يوجد أصلا، ومعاذ الله أن يوجد في كلام الصادق المصدوق الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق»[٢].

سادسًا: خصائص أهل السنة:

١- أنهم «يؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس»[٣]؛ لأنه «مبين للدين كله، موضح لسبيل الهدى، كافٍ لمن اتبعه، لا يحتاج معه إلى غيره، يجب اتباعه دون اتباع غيره من السبل»[٤].

٢- «يقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد»[٥]، و«يتبعون آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا»[٦]، «فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه»[٧]؛ فإن «البيان التام هو ما بينه الرسول ﷺ؛ فإنه أعلم الخلق بالحق وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحق»[٨]، فهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وكذلك سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، «ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى، لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه»[٩]. «فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين»[١٠].

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (٣/ ٢٧٢).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٣٧).

(٣) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٨).

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (١٠/ ٣٠٤).

(٥) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٨) .

(٦) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٧) .

(٧) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٧) .

(٨) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٥١-٣٥٢)

(٩) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/ ٤٤٦) .

(١٠) «العقيدة الواسطية» (ص: ٦٠) .

٣- يعتمدون على الإجماع، ويعدونه «الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين»[١]، «والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف، وانتشرت الأمة»[٢]، «ولا يوجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نصٌّ»[٣]؛ «فإن ما دل عليه الإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة»[٤].

٤- ومن خصائصهم أنهم «يزنون بهذه الأصول الثلاثة (الكتاب والسنة والإجماع) جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة، مما له تعلق بالدين»[٥]؛ لأن «دين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما اتفقت عليه الأمة؛ فهذه الثلاثة هي أصول معصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول»[٦].

٥- ومن خصائص أهل السنة والجماعة «اتباع سبيل السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار»[٧].

٦- ومن خصائصهم أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره على ما جاء عن الله، وعلى ما جاء على لسان رسول الله ﷺ.

٧- ومن خصائصهم أنهم «يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، على ما توجبه الشريعة»[٨] بلا غلو ولا تقصير، وهم في هذا الباب على الصراط المستقيم، «الذي قوامه: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، كما جاء في الأثر عن بعض السلف: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فما ينهي عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه»[٩].

٨- أنهم «وسط في فرق الأمة؛ كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية؛ وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء

(١) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٨).
(٢) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٨).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٩٥).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٩٥).
(٥) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٨).
(٦) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٧٢).
(٧) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٧).
(٨) «العقيدة الواسطية» (ص: ١٢٩).
(٩) «الاستقامة» (٢/ ٢٣٣).

الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج»[١].

٩- ومن خصائصهم تمسكهم بالجماعة وحرصهم على الوحدة والألفة، فهم يعتقدون أن الجماعة حق وصواب، والفرقة شر وعذاب، تمسكًا بقول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٣]، وقوله سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٥]، وقوله جل وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الْأَنْعَامِ: ١٥٩].

١٠- ومن خصائصهم العدل مع كل الطوائف المخالفة، «فإنه أمر بالقسط على أعدائنا الكفار فقال: {كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى} [سورة المائدة: ٨]، فكيف بإخواننا المسلمين والمسلمون إخوة»[٢]، «ولهذا كان العدل أمرًا واجبًا في كل شيء وعلى كل أحد، والظلم محرمًا في كل شيء ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلًا سواء كان مسلمًا أو كافرًا أو كان ظالما، بل الظلم إنما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضًا، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى} أي: لا يحملنكم شنآن أي: بغض قوم - وهم الكفار - على عدم العدل»[٣]، فالكلام في الطوائف «يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم؛ فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقا، لا يباح قط بحال»[٤].

وبالجملة فقد تميز أهل السنة والجماعة في مصادر التلقي، وكذلك في أصول الاعتقاد، وكانوا بهذا وسطًا بين الفرق، كما تميزوا في سلوكهم وأخلاقهم وطريقهم، وكانوا بذلك درة في جبين الدهر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم هم مع هذه الأصول [يعني أصول الاعتقاد] يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه ﷺ[٥]، وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٦]، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن

---

(١) «العقيدة الواسطية» (ص: ٨٢) .

(٢) «الإخنائية» (ص: ٢٤٢) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٦٦) .

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٢٦) .

(٥) أخرجه البخاري (ح٤٨١) ، ومسلم (ح٢٥٨٥) .

(٦) أخرجه مسلم (ح٢٥٨٦) .

الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[١]، ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها، وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا أو غيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة»[٢].

(١) أخرجه مسلم (ح٢٣٣٧) .

(٢) «العقيدة الواسطية» (ص:١٢٩ – ١٣١) .

الركن الأول: الإيمان بالله

اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر؛ خيره وشره[١].

ومن الإيمان بالله الإيمان بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

أولًا: مفهوم التوحيد

التوحيد لغة:

التوحيد مصدر وحد يوحد توحيدًا، والوحدة: الانفراد، والواحد: المنفرد، فمادة وحد تدور حول انفراد الشيء بذاته وصفاته وأفعاله[٢].

مفهوم التوحيد عند أهل السنة:

التوحيد عند أهل السنة شرعًا: إفراد الله تعالى بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته[٣].

ويقال: إفراد الله تعالى بأفعاله وأسمائه وصفاته وحقوقه.

فالأول: (إفراد الله بأفعاله) توحيد الربوبية، والثاني: توحيد الأسماء والصفات، والثالث: (وحقوقه) توحيد العبادة، كما في حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، فقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا» ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال:

---

(١) «العقيدة الواسطية» (ص: ٥٤) .

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (١/ ٣٤٢) .

(٣) انظر هذا المعنى في: «لوامع الأنوار» (٥٧/١) للسفاريني، «تيسير العزيز الحميد» (ص:٣٢– ٣٣)، «القول المفيد» (١١/١) لابن عثيمين.

«هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم»[1].

وقد يعرف بعضهم التوحيد بقوله: إفراد الله بالعبادة، فيقتصر على ذكر توحيد العبادة، وذلك باعتبار أن توحيد العبادة يتضمن ويستلزم نوعي التوحيد، ولأنه أعظم وأهم أنواع التوحيد، وهو الذي وقع الخلاف فيه بين الرسل وأممهم.

مفهوم التوحيد عند المخالفين:

أما مفهوم التوحيد عند المخالفين فإن طوائف البدع – كما يقول ابن القيم[2] – «تقسمت التوحيد، وسمت كل طائفة باطلهم توحيدًا».

١ – فالتوحيد عند **الفلاسفة** كابن سينا وأرسطو وأتباعهما، هو: إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة، بل هو وجود مطلق، لا يعرض لشيء من الماهيات، ولا يقوم به وصف، ولا يتخصص بنعت، بل صفاته كلها سلوب وإضافات، فتوحيد هؤلاء: هو غاية الإلحاد والجحد والكفر[3].

٢ – أما **الاتحادية**: فمفهوم التوحيد عندهم هو: أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود، وحقيقته وماهيته[4].

ومن كلماتهم: (ليس إلا الله) التي جعلوها بديلًا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهذا نظير النصارى في كفرهم بل أعظم؛ لأن النصارى خصوه بالمسيح، وهؤلاء عمموا به جميع الخلق، فعندهم لا فرق بين الرب والعبد، ولا بين عبادة الأصنام وعبادة الرحمن، ولا بين الحلال والحرام، وأقوالهم التي تعبر عن هذا الكفر كثيرة.

كقول ابن عربي:

العبد رب والرب عبد … فليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب … أو قلت رب أنى يكلف

---

(١) أخرجه البخاري (ح٥٩٦٧) ، ومسلم (ح٣٠) .

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٤١٥/٣) .

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥) .

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥) .

ويقول عبد الكريم الجيلي في كتابه (الإنسان الكامل): «أضل الناس المحمديون، وأهدى منهم الثنوية، وأهدى منهم المثلثون، وأهدى منهم من يرى ربه ويعبده في كل شيء».

فهو يرى أن أصحاب الاثنين من المجوس القائلين بالأصلين (النور والظلمة)، والقائلين بالتثليث من النصارى أهدى من أهل التوحيد، وأهدى من الجميع أصحابه أهل وحدة الوجود، وهذا المذهب يكفي مجرد تصوره في معرفة بطلانه.

٣- أما الجهمية: فالتوحيد عندهم هو: هو المبالغة في إنكار التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ولهذا أنكروا علو الله على خلقه بذاته، واستواءه على عرشه، وسمعه وبصره، وقوته وحياته، وكلامه وصفاته وأفعاله ومحبته، ومحبة العباد له ... إلخ صفاته تعالى[١].

٤- القدرية: التوحيد عندهم هو: إنكار قدر الله، وعموم مشيئته للكائنات، وقدرته عليها. قال ابن القيم: «ومتأخروهم ضموا إلى ذلك: توحيد الجهمية، فصار حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القدر، وإنكار حقائق الأسماء الحسنى والصفات العلى، وربما سموا إنكار القدر، والكفر بقضاء الرب وقدره: عدلا، وقالوا: نحن أهل العدل والتوحيد»[٢].

٥- والجبرية: التوحيد عندهم هو: تفرد الرب تعالى بالخلق والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا محدثين لأفعالهم، ولا قادرين عليها[٣].

٦- الرافضة المسماة في عصرنا بالشيعة: وحقيقة التوحيد عندهم هو: إفراد أئمتهم الاثني عشر بالإمامة، ومن أشرك معهم غيرهم أو لم يثبت إمامة واحد منهم فهو مشرك عندهم شركًا أكبر، قال شيخهم المجلسي: «إن الأخبار متضافرة في تأويل الشرك بالله والشرك بعبادته بالشرك في الولاية والإمامة؛ أي يشرك مع الإمام من ليس من أهل الإمامة، وأن يتّخذ مع ولاية آل محمد رضي الله عنهم (أي الأئمّة الاثنا عشر) ولاية غيرهم»[٤].

ولا تكاد تخلو آية من آيات القرآن من موضوع التوحيد والنهي عن الشرك إلا وراموا تحريفها وتعطيل معناها وتحويلها إلى ولاية علي والأئمة ولو كانت صريحة واضحة بينة.

ففي قوله سبحانه: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} جاء في الكافي - أصح كتاب عندهم في الرواية - وفي تفسير القمي - عمدة تفاسيرهم - وفي غيرهما من

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٦).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٧).

(٤) «مرآة الأنوار» (ص٢٠٢).

مصادرهم المعتمدة تفسيرها بما يلي: «يعني إن أشركت في الولاية غيره»، وفي لفظ آخر: «لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي من بعدك ليحبطن عملك»[١].

ثانيًا: أنواع التوحيد

أنواع التوحيد عند أهل السنة:

من أهل العلم من يقسم التوحيد إلى نوعين، ومنهم من يقسمه إلى ثلاثة أقسام، ومنهم من يجعله أربعة، وكلها حق، والاختلاف في التقسيم هو من باب اختلاف التنوع.

١- منهم من قال التوحيد نوعان: الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، والثاني: توحيد في الطلب والقصد.

قال ابن القيم: «فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة {قل يا أيها الكافرون}، وقوله: {قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد»[٢].

٢- ومن أهل العلم من يقول: التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

قال الإمام ابن بطة: «أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا.

الثاني: أن يعتقد وحدانيته، ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

---

(١) انظر: «أصول الكافي» (٤٢٧/١) ، «تفسير القمي» (٢٥١/٢) ، «البرهان» (٨٣/٤) ، «تفسير الصافي» (٣٢٨/٤) .

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٧-٤١٨) ، وانظر: «شرح الطحاوية» (٤٢/١-٤٣) .

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه»[١].

وقال ابن أبي العز: «التوحيد يتضمن ثلاث أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات.

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثالث: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له»[٢].

وقال سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز: «ومن يتأمل دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وحال الأمم الذين دعتهم الرسل يتضح له أن التوحيد الذي دعوا إليه ثلاثة أنواع، نوعان أقر بهما المشركون فلم يدخلوا بهما في الإسلام، وهما توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات ... أما النوع الثالث فهو توحيد العبادة وهو الذي جاءت به الرسل»[٣].

٣- يقسم الإمام الحافظ أبو عبد الله بن منده التوحيد إلى أقسام أربعة -كما يرى محققه -[٤]، وهي:

الأول: الوحدانية في الربوبية.
الثاني: توحيد الألوهية، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.
الثالث: توحيد أسماء الله الحسنى.
الرابع: توحيد الصفات.

فهو يجعل الأسماء قسمًا، والصفات قسمًا آخر، ولا مُشاحَّة في التقسيم؛ فإن من جعل التوحيد نوعين وهما التوحيد العملي والعلمي أدخل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في التوحيد العلمي، ومن جعله ثلاثة أنواع فرَّق بينهما، ومن جعله أربعة جعل توحيد الأسماء والصفات نوعين، فلا فرق بين هذه المسالك في الحقيقة كما ترى.

ومنهم من أضاف نوعًا آخر وهو توحيد الحاكمية، وذلك لما ظهر الإعراض عن تحكيم شرع الله، والاحتكام إلى القوانين الوضعية في العصور المتأخرة، والحق أنه هذا النوع من التوحيد (الحاكمية) داخل

---

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٦/ ١٧٢) .

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٤) .

(٣) «مجموع فتاوى ابن باز» (٢/ ٣٤-٣٧) .

(٤) انظر: «التوحيد» (٣٣/١) لابن منده.

ضمن توحيد الربوبية باعتبار أن الله جل وعلا هو الحكَم، وداخل أيضًا ضمن توحيد الألوهية باعتبار وجوب إفراده تعالى بالحكم والطاعة والأمر والنهي.

أدلة أنواع التوحيد:

والأدلة في هذا الباب كثيرة في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، والقرآن كله في تقرير هذا الأصل العظيم، ولكن نشير هنا إلى أمثلة من دلالة القرآن على كل نوع من أنواع التوحيد:

١- توحيد الربوبية: معناه: توحيد الله بأفعاله، وهو إفراد الله سبحانه بالمِلك والخلق والتدبير، فيؤمن العبد بأنه سبحانه الخالق الرازق، المحيي، المميت، النافع، الضار، المالك، المدبر، له الخلق والأمر كله، كما قال سبحانه: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}. وقال: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}(١).

٢- توحيد الألوهية: والمقصود بتوحيد الألوهيّة: إفراد الله تعالى بالعبادة؛ لأنّه سبحانه المستحقّ أن يُعبد وحده لا شريك له، وإخلاص العبادة له، وعدم صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره(٢).
والأدلة على إفراده سبحانه بالعبادة كثيرة، كقوله سبحانه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]، وغيرها من الآيات.
٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله عز وجل بأسمائه وصفاته، وهو يتضمن أصلين:
الأول: إثبات جميع ما جاء عن الله ورسوله من أسماء الله وصفاته على ما يليق بجلاله، ويختص بعظمته. قال سبحانه : {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: ٦٠] يعني الوصف الأكمل.
الثاني: نفي المماثلة: أي لا نجعل لله مثيلًا في أسمائه وصفاته قال سبحانه: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]، وقال سبحانه: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، ويدل على الأصلين قوله سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

سئل الشيخ العلامة عبد العزيز ابن باز — رحمه الله — عن الدليل على تقسيم التوحيد فأجاب بقوله: « هذا مأخوذ من الاستقراء؛ لأن العلماء لما استقرءوا ما جاءت به النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

---

(١) انظر في معنى توحيد الربوبية: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣٣/١٠) ، «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٤/١) ، «تجريد التوحيد» (ص٨١) للمقريزي (ضمن مجموع: عقيدة الفرقة الناجية) ، «لوامع الأنوار البهية» (١٢٨/١-١٢٩) ، «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٣) .
(٢) انظر في تعريف توحيد الألوهية: «شرح الطّحاويّة» (١/ ٢٤) ، «لوامع الأنوار» (٢٩/١) ، «تيسير العزيز الحميد» (ص:٣٦) وغيرها.

ظهر لهم هذا، وزاد بعضهم نوعًا رابعًا هو توحيد المتابعة، وهذا كله بالاستقراء. فلا شك أن من تدبر القرآن الكريم وجد فيه آيات تأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وهذا هو توحيد الألوهية، ووجد آيات تدل على أن الله هو الخلاق وأنه الرزاق وأنه مدبر الأمور، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون ولم يدخلهم في الإسلام، كما يجد آيات أخرى تدل على أن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه لا شبيه له ولا كفو له، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات الذي أنكره المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والمشبهة، ومن سلك سبيلهم، ويجد آيات تدل على وجوب اتباع الرسول ورفض ما خالف شرعه، وهذا هو توحيد المتابعة، فهذا التقسيم قد علم بالاستقراء وتتبع الآيات ودراسة السنة»[١].

وقال الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – : «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في (تاج العروس)[٢]، وشيخنا الشنقيطي في (أضواء البيان) وآخرين – رحم الله الجميع –، وهو استقراء تامٌّ لنصوص الشرع، وهو مطرِّد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تَفُهْ بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»[٣].

ولذا قال ابن القيم: «وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القرآن، فهي داعية إلى هذا التوحيد، شاهدة به، متضمنة له؛ لأن القرآن:

١– إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الصفات فذاك مستلزم لهذا، متضمن له.

٢– وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه أو أمر بأنواع من العبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمن لهما أيضًا.

٣– وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

٤– وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بها في العقبى من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

(١) «مجموع فتاوى ابن باز» (٦/ ٢١٥) .

(٢) انظر: «تاج العروس» (٩/ ٢٧٦) .

(٣) «التحذير من مختصرات الصابوني» (ص: ٣٣١) في الحاشية، ضمن كتاب (الردود) .

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه»[1].

ويقول أيضًا: «فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ{الحمد لله} [الفاتحة: ٢] توحيد، {رب العالمين} [الفاتحة: ٢] توحيد، {الرحمن الرحيم} [الفاتحة: ٣] توحيد، {مالك يوم الدين} [الفاتحة: ٤] توحيد، {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥] توحيد {وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] توحيد، {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} [الفاتحة: ٧] الذين فارقوا التوحيد، ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته، وأنبياؤه ورسله، قال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران: ١٨] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم»[2].

وقال الشيخ العلامة الشنقيطي – رحمه الله –: «وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: ٨٧] الآية، وقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣] تجاهل عن الاعتراف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} الآية [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى (لا إله إلا الله) وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٧-٤١٨) ، وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٢٢) .

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٨) .

في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} الآية [محمد: ١٩]، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد، لشمول كلمة: «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]»[(١)].

وقد اجتمعت أدلة أنواع التوحيد الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: ٦٥].

العلاقة بين أنواع التوحيد:

توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ لأن من عبد الله وحده لابد أن يكون قد اعتقد أنه الرب المالك الخالق المدبر المستحق للعبادة، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، ويدل عليه ويوجبه، ولهذا أقام الله الحجة على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإلهية تتضمن الربوبية؛ والربوبية تستلزم الإلهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ١٧- ١٩) .

النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ} [الناس: ١ – ٣]، وفي قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] فجمع بين الاسمين: اسم الإله واسم الرب؛ فإن (الإله) هو المعبود الذي يستحق أن يعبد، و(الرب) هو الذي يربي عبده فيدبره»[١].

والربوبية والألوهية تارة يذكران معًا فيفترقان في المعنى، ويكون أحدهما قسيمًا للآخر، كما في قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ} [الناس: ١ – ٣]، فيكون معنى الرب: المالك المتصرف في الخلق، ويكون معنى الإله: المعبود بحق، المستحق للعبادة وحده، وتارة يذكر أحدهما مفردًا عن الآخر فيجتمعان في المعنى، كما في قول الملكين للميت في القبر: من ربك؟ ومعناه: من إلهك وخالقك؟ وكما في قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج: ٤٠]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [الأحقاف: ١٣].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «اعلم أن الربوبية، والألوهية يجتمعان، ويفترقان، كما في قوله: {أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ} [الناس: ١–٣]، وكما يقال: رب العالمين، وإله المرسلين، وعند الإفراد يجتمعان، كما في قول القائل: من ربك؟»[٢].

وكذلك توحيد الأسماء والصفات يستلزم توحيد الألوهية، وكان المشركون يقرون به ولم ينكروه، سوى ما ذكر عنهم من إنكار الرحمن في قوله تعالى: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: «والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن»[٣].

فمن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، ولكن لم يعبد الله وحده لم ينفعه ذلك كما لم ينفع المشركين إقرارهم بهذين القسمين دون الثالث، فلابد من إفراد الله بالعبادة، ونفي الإشراك به، والاستقامة على ذلك، والموالاة فيه والمعاداة فيه، ومن عبد الله وحده ولكن اعتقد أن لأحد القدرة على النفع والضر فيما لا يقدر عليه إلا الله لم تنفعه عبادته، ومن أقر بتوحيد العبادة والربوبية، ولكن عطل الخالق من صفاته، أو مثلها بصفات خلقه لم ينفعه توحيده في الربوبية والإلوهية، فلا يصح لأحد توحيده إلا بهذه الأمور الثلاثة جميعا، قال الشيخ سليمان: «وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٣-٢٨٤) .

(٢) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ١٠٦) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٢٧) .

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (ص: ١٧) .

فمن كفر ببعض وآمن ببعض فقد ضل، لكن كانت دعوة الرسل في توحيد الألوهية لكثرة الضلال فيه، ولإقرارهم بالربوبية والأسماء والصفات في الجملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الألوهية، المتضمن لتوحيد الربوبية، بأن يعبد الله وحده لا يشركون به شيئًا، فيكون الدين كله لله، ولا يخاف إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، فيحبون لله، ويبغضون لله، ويعبدون الله ويتوكلون عليه»[١].

أنواع التوحيد عند أهل الكلام:

الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، وهي: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، ويعبرون عنها بقولهم:

١- واحد في ذاته لا قسيم له.
٢- واحد في صفاته لا شبيه له.
٣- واحد في أفعاله لا شريك له[٢].

نقد هذا التقسيم:

أولًا: قولهم: هو واحد في ذاته لا قسيم له، أو لا جزء له، أو لا بعض له؛ لفظ مجمل؛ لأنه يحتمل أن يراد به أن الله سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فيمتنع أن يتفرق، أو يتجزأ، أو يكون قد رُكِّب من أجزاء، وهو حق، لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نفي علوه على عرشه، ومباينته لخلقه، وامتيازه عنهم، ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلك من التوحيد[٣].

ثانيًا: قولهم: واحد في صفاته لا شبيه له، الأولى أن يقال: لا مثيل له؛ لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١][٤].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٨٩-٢٩٠) .
(٢) انظر مثلًا: «نهاية الأقدام» (ص:٥٦) .
(٣) «التدمرية» (ص:١٨٤-١٨٥) .
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩٥/٣) .

وأيضًا لأن نفي التشبيه مطلقًا يتضمن التعطيل؛ لأنه قد علم أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلابد بينهما من قدر مشترك، كاتفاقهما في مسمى الوجود والقيام بالنفس والذات ونحو ذلك، فنفي ذلك يقتضي التعطيل المحض، أي نفي الوجود أصلًا[١].

وأمر ثالث: أن لفظ التشبيه لفظ مجمل، إذ يسمي الجهمية إثبات الصفات تشبيهًا، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الجهمية من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفي الصفات في مسمى (التوحيد)، فصار من قال: إن لله علما أو قدرة، أو إنه يُرى في الآخرة، أو إن القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق – يقولون: إنه مشبِّه ليس بموحد. وزاد عليهم غلاة الجهمية والفلاسفة والقرامطة فنفوا أسماءه الحسنى، وقالوا: من قال: إن الله عليم قدير عزيز حكيم، فهو مشبِّه ليس بموحد. وزاد غلاة الغلاة، وقالوا: لا يوصف بالنفي ولا الإثبات، لأن في كل منهما تشبيهًا له. وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شر ممّا فروا منه، فإنهم شبّهوه بالممتنعات والمعدومات والجمادات فرارًا من تشبيههم – بزعمهم – له بالأحياء»[٢].

وقد «يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته»[٣].

ثالثًا: قولهم: واحد في أفعاله لا شريك له. هذا أشهر الأنواع الثلاثة عندهم، وهو توحيد الله بأفعاله، أي توحيد الربوبية، ويجعلون هذا هو الغاية في التوحيد، وأن هذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، حتى يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع، وهذا خطأ من وجوه:

١– أن هذا النوع من التوحيد قد أقر به المشركون فلم يجعلوا لله شريكا في أفعاله، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [العنكبوت: ٦١]، وقال سبحانه: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: ٨٧]، فلم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، ولم يكونوا موحدين، بل هم مشركون لإنكارهم توحيد الإلوهية، وقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، فكيف يغفل هؤلاء المتكلمون هذا الأصل ولا يذكرونه، ويجعلون الإقرار بتوحيد الربوبية هو الغاية في التوحيد؟!

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/٩٩) .

(٢) «التدمرية» (ص: ١٨٢-١٨٣) .

(٣) «شرح الطحاوية» (١/ ٥٧) .

٢- أن هذا التوحيد (الربوبية) أمر قد فطر عليه البشر، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، فلا توجد طائفة من بني آدم تعتقد إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، مع أن المتكلمين أجهدوا أنفسهم في إثباته واحتجوا عليه بما يذكرونه من دلالة التمانع، كما سيأتي.

٣- أنهم أغفلوا توحيد الألوهية، وهو الغاية في التوحيد؛ لأن عبادة الله وحده لا شريك له هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب[١]، وقد سبقت الأدلة على ذلك.

هذا، ولا تزال كثير من المصنفات في علم التوحيد إلى اليوم تأخذ بالمنهج الكلامي في تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة مع إغفال توحيد الألوهية الذي هو أول واجب على المكلفين، إلا من عصمه الله وأخذ بمنهج السلف.

فهذا مثلًا الشيخ محمد عبده يقول في تعريف التوحيد: «هو إثبات الوحدة لله في الذات، والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثه النبي ﷺ»[٢].

وقد تنبه الشيخ رشيد رضا تلميذ محمد عبده إلى خطأ شيخه، فقال - مستدركًا عليه -: «فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة، وهو أن يعبد الله وحده، ولا يعبد غيره بدعاء، ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام، كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم، هذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو إليه كل رسول قومه بقوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]».

وقال الدكتور محمد خليل هراس: «وقد غلط الشيخ عبده في اعتبار توحيد الربوبية هو الغاية العظمى من بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام-، فإن هذا النوع من التوحيد كانت تقر به الأمم التي بعثت إليها الرسل، ولم يقع نزاع فيه بينهم وبين الرسل، وإنما كان النزاع في توحيد الألوهية والعبادة، ولهذا لم يجئ على لسان الرسل - عليهم السلام - الدعوة إلى اعتقاد أن الله هو وحده الخالق[٣]، وإنما كان مدار دعوتهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، فكل منهم كان مفتتح دعوته لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]، وقد جاء في القرآن ما يقرر أن المشركين كانوا يقرون لله بالربوبية». ثم قال هراس: «ولعل فضيلة الشيخ عبده في هذا كان متأثرًا بالأشعرية الذين جعلوا الانفراد بالخلق هو أخص

---

(١) انظر: «التدمرية» (ص:١٧٩-١٨١)، «درء تعارض العقل والنقل» (١/٢٢٦-٢٢٨).

(٢) «رسالة التوحيد» (ص: ٤٣)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط. الخامسة ١٤٠٥هـ.

(٣) فيه نظر؛ لأن الرسل جاؤوا أيضًا بتقرير توحيد الربوبية، والقرآن العظيم فيه من تقرير هذا التوحيد ودلائله ما هو ظاهر.

خصائص الإلهية، واهتموا في كتبهم بإقامة البراهين على هذا النوع من التوحيد، دون أن يشيروا إلى توحيد الألوهية الذي هو أقصى الغايات ونهاية النهايات»[١].

أنواع التوحيد عند الصوفية:

يقسم الصوفية التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- توحيد العامة: وهو ما يصح بالشواهد (أي بالأدلة والآيات والبراهين) وهم يعنون به توحيد الألوهية!!

٢- توحيد الخاصة: وهو ما يثبت بالحقائق (يعنون المكاشفات).

٣- توحيد خاصة الخاصة: وهو توحيد قائم بالقدم يعني القول بالاتحاد، فلا فرق بين القدم والحدث[٢]. وقد جاء ما يشبه هذا التقسيم عند روافض عصرنا، إلا أنهم زادوا قسمًا رابعًا سموه (توحيد أخص الخواص)[٣]، والصلة بين التصوف الغالي والرفض ظاهرة[٤].

وحينًا يعبر الصوفية عن ذلك بقولهم:

١- فناء عن إرادة السوى (أي توحيد الألوهية).

٢- فناء عن شهود السوى (أي وحدة الشهود).

٣- فناء عن وجود السوى (أي وحدة الوجود)[٥].

وهذا التقسيم باطل من وجوه:

---

(١) «دعوة التوحيد» محمد خليل هراس (ص:١٢،١٣) .

(٢) ذكره الهروي في «منازل السائرين» (٤٤٥/٣) مع «مدارج السالكين»، وانظر قريبًا منه في: «إحياء علوم الدين» (٢٤٥/٤) .

(٣) يقول شيخهم وآيتهم إبراهيم الزنجاني في كتابه «عقائد الإمامية الاثنى عشرية» (ص:٢٤) تحت عنوان (عقيدة الشيعة في التوحيد) : «إن مراتب التوحيد أربع: توحيد العوام، وتوحيد الخواص، وتوحيد خاص الخواص، وتوحيد أخص الخواص، والأولى مدلول كلمة (لا إله إلا الله) ...» وذكر بأن شيعته تمتاز عن المسلمين جميعًا بعقيدة توحيد خاص الخاص، وتوحيد أخص الخواص، والكتاب موثق من كبار شيوخهم كالخوئي، وحسن الموسوي، ووصف الخوئي مؤلفه بأنه «ركن الإسلام، عماد العلماء»، وانظر نقد هذا التقسيم في: «أصول مذهب الشيعة» (١٠٧٩/٣) .

(٤) انظر: «التصوف» لإحسان إلهي ظهير، «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» لعبد الرحمن عبد الخالق.

(٥) انظر نقد شيخ الإسلام ابن تيمية للفناء عند الصوفية في: «الفتاوى» (١١٨/٣-١١٩) ، «تقريب التدمرية» للشيخ محمد بن عثيمين (٢٣٩/٤) ، (ضمن مجموع فتاوى ورسائل، جمع: فهد السليمان) .

أولًا: هذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، وهذه سنة الرسول ﷺ، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول ﷺ. هل جاء هذا التقسيم عن أحد منهم؟! قال ابن أبي العز: «فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة وهذا توحيد خاصة الخاصة؟! أو ما يقرب من هذا المعنى؟ أو أشار إليه؟!»[١].

ثانيًا: حسبك أن تدرك أن مبلغ أمرهم في سلوك هذه المقامات التي باعترافهم ليست من مدلول معنى (لا إله إلا الله) هو الوصول بالسالك إلى ما يسمى بالحلول أو الاتحاد[٢]، قال ابن أبي العز: «ولا شك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة، ينتهي إلى الفناء الذي يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضي إلى الاتحاد»[٣].

ثالثًا: أن توحيد الألوهية الذي سموه توحيد العامة هو توحيد الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فهل هناك أحد من الخلق أكمل توحيدًا من الرسل؟! فتوحيد الرسل هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم - علمًا ومعرفة وحالا - تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا، وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وأكملهم توحيدًا: الخليلان محمد وإبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهما -»[٤].

---

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٥٦) .

(٢) ذكر شيخ الإسلام أن مبدأ حدوث قول الاتحادية وأمثاله في أمة محمد ﷺ هو زمن حدوث دولة التتار. (مجموع الفتاوى ١٧١/٢)
.

(٣) «شرح الطحاوية» (١/ ٥٥) .

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٥) ، وانظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/٣٤٣-٣٥٨) .

توحيد الربوبية

تعريف الربوبية:

الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيّم، والمنعم؛ ولا يطلق غير مضاف إلا على الله، عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب كذا[١].

وتوحيد الربوبية شرعًا هو: توحيد الله بأفعاله.

أو هو: إفراد الله –عز وجل– بالخلق، والملك، والتدبير[٢].

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله. قال تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْر} [الأعراف:٥٤] فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر، إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. وقال تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض} [فاطر: ٣] فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله؛ لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي.

وأما إفراد الله بالملك فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض} [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء} [المؤمنون: ٨٨].
وأما إفراد الله بالتدبير فأن نعتقد أنه لا يدبر أمر الخلق إلا الله، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [يونس: ٣]، وقال سبحانه: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} [السجدة: ٥].
قال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: «الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر»[٣].
والحاصل أن أصول الإيمان بالربوبية أربعة، وهي:

١- الإيمان بوجود الله تعالى.
٢- إفراد الله بالملك.
٣- إفراد الله بالخلق.
٤- إفراد الله بالتدبير.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/١٢٨) ، «النهاية» (٢/١٧٩) ، «لسان العرب» (١/ ٣٩٩) ، «تاج العروس» (٢/٤٥٩) .
(٢) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ١٢) .
(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص: ١٧) .

أسماؤه:

من أسماء توحيد الربوبية، ويشترك معه في هذه الأسماء توحيد الأسماء والصفات:

١- التوحيد العلمي.
٢- التوحيد الخبري.
٣- التوحيد الاعتقادي.
٤- توحيد المعرفة والإثبات.

أدلته:

الأدلة على توحيد الربوبية كثيرة ومتنوعة، ومنها[(١)]:

- الفطرة.
- الأدلة الشرعية.
- الأدلة الحسية والعلمية.
- الأدلة العقلية.
- آيات الأنبياء وكرامات الأولياء.
- إجابة الدعوات.
- الاستدلال بأسماء الله وصفاته.

الدليل الأول: الفطرة:

الفطرة مركوز فيها معرفة الله سبحانه ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره، فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملًا ومفصلًا بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكرها بذلك، وتنبهها عليه، أو تفصله لها وتبينه، وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة.

---

(١) يلاحظ في عرض الأدلة ما يلي:

أن من هذه الأدلة ما يدخل في بعض عموميات الأدلة الأخرى، كدخول دليل الأسماء والصفات في عموم الدليل الشرعي، ولكن أفردناه لأهميته وضرورة إيضاحه وتقريره كدليل مستقل وفق ما جاء في المرجع الرئيس (شرح الطحاوية) .

١. أن من هذه الأدلة ما هو مشترك بين أكثر من طريق فذكرناه فيما هو أقرب له.
٢. أن هذه الأدلة هي إشارات أو عناوين لمباحث كبرى يستغرق تفصيل القول في كل واحد منها مصنفات، ذلك أنها تتعلق بأدلة وجود الحق سبحانه وتوحيده جل شأنه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وفي الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق سبحانه، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل، وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب هو أمر مستقر في فطر الخلائق، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها.

وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل، فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر، وإباحة طيب وتحريم خبيث، وأمر بعدل ونهي عن ظلم، وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل.

وكذلك في الفطر الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها وجزائها بكسبها في غير هذه الدار، وأما تفاصيل الحساب والجزاء والثواب والعقاب فلا يكون إلا بالرسل.

فالرسل تذكر بما في الفطر وتفصله وتبينه، والشريعة مطابقة للفطرة، يتصادقان ولا يتعارضان[(١)].

قال ابن القيم – رحمه الله –: «ومما يبين ذلك أن الإقرار بالصانع مع خلو القلب عن محبته والخضوع له وإخلاص الدين له لا يكون نافعًا، بل الإقرار به مع الإعراض عنه وعن محبته وتعظيمه والخضوع له أعظم استحقاقًا للعذاب، فلابد أن يكون للفطرة مقتض للعلم ومقتض للمحبة، والمحبة مشروطة بالعلم؛ فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه، والحب للمحبوبات لا يكون بسبب من خارج، بل هو جبلي فطري، فإذا كانت المحبة جبلية فطرية، فشرطها وهو المعرفة أيضًا جبلي فطري، فلابد أن يكون في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به، وهذا أصل الحنيفية التي خلق الله خلقه عليها وفطرته فطرهم عليها»[(٢)].

ولهذا فإن معنى الفطرة هي: الإسلام – على القول الراجح – من أقوال أهل العلم[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام، لما سألوا عقب ذلك: «أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟»[(٤)]؛ لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لم يسألوه»[(٥)].

وليس المراد بالقول أنه يولد على الفطرة، أي يولد على الإسلام أنه يولد عارفًا بأمور الإسلام، فالله يقول: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨].

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص:٣٠١-٣٠٢) .

(٢) «شفاء العليل» (ص: ٣٠٢) .

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٣٤-٣٣٥) ، «تفسير البغوي» (٣/٤٨٢) ، «زاد المسير» لابن الجوزي (٦/٣٠٠-٣٠١) ، «تفسير القرطبي» (١٤/٢٥) ، «تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٢) ، «فتح القدير» للشوكاني (٤/٢٢٤) .

(٤) أخرجه مسلم (ح٢٦٥٩) .

(٥) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٣٧١) .

قال ابن تيمية: «ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا»(١).

كما أنه ليس المراد بالفطرة أنه يولد ساذجًا لا يعرف شركًا ولا توحيدًا؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «يولد على الملة»(٢)، وفي رواية: «على هذه الملة»(٣)، وفي الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(٤)، بل المراد: سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلمًا(٥).

فإن كل مولود يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية، فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلاءم بدنه من الأغذية والأشربة، قال ابن القيم – بعدما ساق الأقوال والأدلة في تفسير الفطرة –: «فقد تبين دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له، وإن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه ويقتضي حصول ضده، وإن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط، بل على انتفاء المانع، فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه، لا لعدم مقتضيه»(٦).

وقد عرف شيخ الإسلام ابن تيمية الفطرة بتعريف جامع مانع فقال: «القوة العلمية والعملية التي تقتضي بذاتها الإسلام إذا لم يمنعها مانع»(٧)، وعرفها أيضًا بقوله: «هي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة»(٨).

الأدلة الشرعية على دليل الفطرة:

قد شهد على دليل الفطرة القرآن والسنة.

قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي (ح٢١٣٨)، وقال: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه مسلم (ح٢٣).

(٤) أخرجه مسلم (ح٢٨٦٥).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٤٧).

(٦) «شفاء العليل» (ص: ٣٠٢-٣٠٣).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٤٧).

(٨) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٤٥).

وسمعت شيخي محمد ابن عثيمين – رحمه الله – يعرف الفطرة من منطوق هذه الآية، فيقول: «الفطرة هي استقامة العبد على دين الله، أو: إقامة العبد وجهه للدين حنيفًا».

والمعروف عند عامة السلف وأهل التأويل في قول الله عز وجل: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ} [الروم: ٣٠] أن المراد بـ {فِطْرَتَ اللَّهِ}: دين الله الإسلام(١).

وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } [الأعراف: ١٧٢] والمراد بهذا الإشهاد: الفطرة – على الراجح –. قال الحافظ ابن كثير: «قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد»(٢).

ومن السنة: حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه»(٣)، ولم يقل: أو يسلمانه؛ لأن الفطرة هي الإسلام وهو الأصل.

الأدلة العقلية على دليل الفطرة:

وهي كثيرة ساق شيخ الإسلام طائفة منها في (درء التعارض)(٤)، وذكر الإمام ابن القيم منها ستة عشر وجهًا في (شفاء العليل)(٥)، واختصرها ابن أبي العز في (شرح الطحاوية)(٦).

فمن الدلائل على أن كل مولود يولد على الفطرة ما يلي:

أولًا: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًّا، وتارة ما يكون باطلًا، وهو حساس متحرك بالإرادة، فلابد له من أحدهما، ولابد له من مرجح لأحدهما، ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدُق وينتفع، أو يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدُق وينتفع، وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسد قطعًا، فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به.

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص:٢٨٥) ، «فتح الباري» (٣/١٩١) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٠٦) .

(٣) أخرجه البخاري (ح١٣٥٩) ، ومسلم (ح٢٦٥٨) .

(٤) انظر: «درء التعارض» (٨/٤٥٦) وما بعدها.

(٥) انظر: «شفاء العليل» (ص:٣٠٣-٣٠٦) .

(٦) انظر: «شرح الطحاوية» (١/٣٤-٣٥) .

ثانيًا: من الواضح الجلي أن الإنسان مجبول على جلب ما ينفعه ودفع ما يضره بحسه، ولكن فطرة كل واحد غير مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج إلى سبب معين كالتعليم ونحوه، فهو مثلًا يحب الصحة ويكره المرض، ولكن هذا الإحساس الفطري غير كاف في معرفة أسباب الصحة وأسباب المرض ووسائل الوقاية والعلاج، بل لابد من سبب معين كالتعليم ونحوه.

وهكذا حال الفطرة بالنسبة للإيمان والكفر، ولذلك يقال: إذا وجد الشرط، وهو بلوغ الرسالة، وانتفى المانع كتأثير البيئة الفاسدة استجابت الفطرة لما فيها من المقتضى لذلك.

ثالثًا: بل يقال إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح؛ لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم والمانع منتفٍ، وهذا مصداق قوله ﷺ: «كل مولود يولد على هذه الملة»(١).

رابعًا: يقرر تاريخ الأديان أنه ما من أمة من الأمم إلا وقد اتخذت لنفسها معبودًا تقدسه وتعظمه، قد توجد قرية أو مدينة بلا مستشفى، ولكن لا توجد بغير معبد أو معبود بأي صورة من الصور، وبأي اسم من الأسماء.

خامسًا: أن العبد مجبول على اللجوء إلى الله، ففي ساعة المحنة يختفي الإلحاد وتستيقظ الفطرة، حين يعلن قائد الطائرة أن الطائرة في خطر لا تسمع للإلحاد صوتًا، فالقلوب تتوجه مدفوعة بفطرتها بالدعاء؛ «لأن الشعور بوجود الله تعالى، والإذعان بخالق قادر مفطور عليه الإنسان، لا يغيره ريب المرتابين؛ لأنه عقد طبع عليه جنانه وتأثر به لسانه وبيانه، ولذلك كان من أثره ما يرى من انطلاق الألسنة في الكوارث، وما تندفع إليه في الحوادث من اللجوء إليه، والتضرع له تضرعًا لا يرده راد، ولو قيد لسانه لأفصحت عن حاله أركانه، وتلك حالة لا صنع فيها للبشر، ولا كسب فيه بتقليد ولا نظر، فهي لازم من لوازم الإنسانية وصفة من صفاتها الذاتية، اشتبك بها اشتباك اللحم بالعظم، وسرى في قواها سريان الدم في الجسم»(٢).

ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري، وذلك أن اضطرار النفوس إلى ذلك أعظم من اضطرارها إلى ما لا تتعلق به حاجتها، فلا نحتاج بعد سلامة الفطرة إلى دليل، وإنما يحتاج إلى ذلك من تغيرت فطرته.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «دلائل التوحيد» للقاسمي (ص: ٢٣) ، ط. دار الكتب العلمية.

قال شيخ الإسلام: «الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريًّا ضروريًّا في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها»(١).

فالإقرار بالصانع فطري ضروري لم يذهب إلى نقيضه طائفة، يقول الشهرستاني – وهو من أعلم الناس بالمقالات والفرق –: «أما تعطيل العالم عن الصانع العالِم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليه صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة، واصطكت اتفاقًا فحصل عنها العالم بشكله الذي تراه عليه، ودارت الأكوار، وكرت الأدوار، وحدثت المركبات، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع، بل هو معترف بالصانع، لكنه يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق احترازًا عن التعليل، فما عددت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان، فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير»(٢)، ثم قال: «ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللّه»(٣)، ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد، {ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} [غافر: ١٢] الآية، {وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الزمر: ٤٥]، {وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُورًا} [الإسراء: ٤٦]. وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى وهو الاستدلال بالحوادث على محدِثٍ صانع، وسلك الأوائل [يعني الفلاسفة] طريقًا آخر، وهو الاستدلال بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان(٤)، ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهة». ثم قال الشهرستاني: «وأنا أقول: ما شهد به الحدوث أو دل عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات، فيرغب إليه، ولا يرغب عنه، ويستغني به، ولا يستغنى عنه، ويتوجه إليه ولا يعرض عنه، ويفزع إليه في الشدائد والمهمات؛ فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث»(٥).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٧٣) .

(٢) «نهاية الإقدام في علم الكلام» (ص: ٧٤) .

(٣) أخرجه البخاري (ح٢٥) ، ومسلم (ح٢٠) .

(٤) قال شيخ الإسلام معقبًا: «وهذا الطريق الثاني لم يسلكه الأوائل، وإنما سلكه ابن سينا ومن وافقه، ولكن الشهرستاني وأمثاله لا يعرفون مذهب أرسطو والأوائل؛ إذ كان عمدتهم فيما ينقلونه من الفلسفة على كتب ابن سينا» (درء تعارض العقل والنقل ٣/ ١٣٠) .

(٥) «نهاية الإقدام في علم الكلام» (ص: ٧٥) .

قال ابن أبي العز الحنفي: «وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم: ١٠].

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنا به في الباطن، كما قال له موسى: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]، ولهذا قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣] على وجه الإنكار له تجاهلَ العارف، قال له موسى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [الشعراء: ٢٤ - ٢٨].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية، وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية، عجز موسى عن الجواب وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدًا لله، نافيًا له، لم يكن مثبتًا له طالبًا للعلم بماهيته، فلهذا بيَّن لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو؟ بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف»[(١)].

الدليل الثاني: الشرع:

وهي ما جاءت به رسل الله ونزلت به كتبه من تقرير التوحيد بأنواع الطرق ومختلف الأساليب، وقد مضى القول بأن كل سورة في القرآن هي في التوحيد.

قال ابن أبي العز: «وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٣].

ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة الطويلة: فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى، وأيضًا فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجلى منها، وقد

---

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٥-٢٦) .

تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضروري فطري، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية»[١].

وقد مضى عند تعريف الربوبية ذكر بعض الآيات القرآنية الدالة عليه.

الدليل الثالث: العقل:

تضمن القرآن من الأدلة العقلية القطعية على مسائل أصول الدين ما فيه غنية عن أدلة المتكلمين التي لا تورث إلا الشك والحيرة والاضطراب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «دلالة السمع تتناول الإخبار، وتتناول الإرشاد والتنبيه والبيان للدلائل العقلية، وأن الناس كما يستفيدون من كلام المصنفين والمعلمين الأدلة العقلية التي تبين لهم الحق، فاستفادتهم ذلك من كلام الله أكمل وأفضل، فتلك الأدلة عقلية باعتبار أن العقل يعلم صحتها إذا نبه عليها، وهي شرعية باعتبار أن الشرع دل عليها وهدى إليها، فعلى هذا التقدير تكون الدلائل حينئذ شرعية عقلية، وعلى هذا فقد يقال: الأدلة الشرعية نوعان: عقلي وسمعي، فالعقلي: ما دل الشرع عليه من المعقولات، والسمعي: ما دل بمجرد الإخبار»[٢].

وقال أيضًا: «وقد بينا في غير هذا الموضع أن القرآن ضرب الله فيه الأمثال، وهي المقاييس العقلية التي يثبت بها ما يخبر به من أصول الدين، كالتوحيد وتصديق الرسل وإمكان المعاد، وأن ذلك مذكور في القرآن على أكمل وجه؛ وأن عامة ما يثبته النظار من المتكلمين والفلاسفة في هذا الباب يأتي القرآن بخلاصته، وبما هو أحسن منه على أتم الوجوه، بل لا نسبة بينهما لعظم التفاوت»[٣].

وقال ابن القيم: «والله سبحانه حاجَّ عباده على ألسن رسله وأنبيائه فيما أراد تقريرهم به وإلزامهم إياه بأقرب الطرق إلى العقل وأسهلها تناولًا، وأقلها تكلفًا، وأعظمها غَناء ونفعًا، وأجلها ثمرة وفائدة، فحججه سبحانه العقلية التي بينها في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية، ظاهرة واضحة، قليلة المقدمات، سهلة الفهم، قريبة التناول، قاطعة للشكوك والشبه، ملزمة للمعاند والجاحد، ولهذا كانت المعارف التي استنبطت منها في القلوب أرسخ ولعموم الخلق أنفع. وإذا تتبع المتتبع ما في كتاب الله مما حاجَّ به عباده في إقامة التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات الرسالة والنبوة، وإثبات المعاد وحشر الأجساد، وطرق

---

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٧٦-٧٧) .

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٣٦- ٣٧) .

(٣) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٦/ ٦٤٤) .

إثبات علمه بكل خفي وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته وتفرده بالملك والتدبير، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من تصرف المخاطبة منه سبحانه في ذلك على أجل وجوه الحجاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملاءمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشبه، في أوجز لفظ وأبينه وأعذبه وأحسنه وأرشقه وأدله على المراد»(١).

والأدلة العقلية على الوجود الحق التي جاء القرآن بتقريرها كثيرة، منها:

١- قوله سبحانه: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: ٣٥]. وتقرير هذا الدليل: أنهم لم يُخلقوا من غير خالق؛ إذ لابد لكل مخلوق من خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم؛ إذ إن الشيء لا يوجِد نفسه، فهو قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟! فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى. يقول ابن أبي العز (شارح الطحاوية): «يقول سبحانه: أحدثوا من غير محدِث؟ أم هم أحدثوا أنفسهم؟ ومعلوم أن الشيء المحدِث لا يوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودًا بنفسه، بل إن حصل ما يوجده، وإلا كان معدومًا، وكل ما أمكن وجوده بدلًا عن عدمه، وعدمه بدلًا عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له»(٢).

ويقول ابن القيم: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟! فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانًا وقصورًا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعًا صنعها وبانيًا بناها.

ثم قال: {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجِدًا خالقًا لنفسه؛ فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعًا ولا ظفرًا ولا شعرة كيف يكون خالقًا لنفسه في حال عدمه؟! وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطرًا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم؟!»(٣).

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦٠) ، وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/١٤٥) .

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٧٦) ، وانظر: «النبوات» (١/٣١٢-٣١٣) .

(٣) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٩٣) .

٢- قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم: ١٠]، والمعنى: أفي وجوده شك؟![١]، وهو استفهام على سبيل الإنكار، فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الله، وهو قوله: {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه[٢].

٣- قوله جل وعلا: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

وقد أجاب موسى المنكرين بما يدل على إثبات الصانع سبحانه، فإن افتقار السماوات والأرض وما بينهما، والمشرق والمغرب، والموجودين وآثارهم، إلى الصانع، واستقرار ذلك في فطرهم -أمر لا يمكن إنكاره إلا عنادًا.

وذكر موسى - عليه السلام - السماوات والأرض، والليل والنهار، والأولين والآخرين، فذكر الأعلى والأسفل، والمتيامن والمتياسر، والمتقدم والمتأخر، وهذه هي الجهات الست للإنسان، وذكر التقدم والتأخر بالزمان، بعد أن ذكر التقدم والتأخر بالمكان، فإن المكان دخل في السماوات والأرض، والمشرق والمغرب، وذكر موسى خلق الإنسان، بعد أن ذكر الخلق العام[٣].

ويحكى في هذا الباب عن أبي حنيفة أن قومًا من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد؟ فقالوا: هذا محال، لا يمكن أبدًا، فقال لهم: إذا كان هذا محالًا في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟! فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه[٤].

---

(١) وهو أحد القولين في تفسير الآية، والثاني: أفي إلهيته واستحقاقه للعبادة وحده شك؟! انظر: (تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٢) .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢) .

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (١٠/ ٢٧٤) .

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (١/٣٥) ، «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧) .

كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟[١].

وحكى فخر الدين الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك، فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات[٢].

وحكي عن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع؟ فقال: هذا ورق التوت، طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك، وهي شيء واحد[٣].

وعن الإمام أحمد أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرجت منها الدجاجة[٤].

وقال الإمام الأشعري – رحمه الله –: «إن سأل سائل: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره؟ قيل: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحمًا ودمًا، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال؛ لأنا نراه في حال كمال قوته، وتمام عقله، لا يقدر أن يُحدِث لنفسه سمعًا ولا بصرًا، ولا أن يخلق لنفسه جارحة، فدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز؛ لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر، وما عجز في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز»[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على كلام الأشعري: «هذا الدليل مبني على مقدمتين: على تحول الإنسان من حال إلى حال، وأن ذلك لابد له من صانع حوله من حال إلى حال، وكلتا المقدمتين ضرورية»[٦].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/١٩٧-١٩٨).

(٥) «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» (ص:١٧-١٨).

(٦) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٧٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلي، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غني عما سواه.

وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغني عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالقٍ غني عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك.

وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجبًا بنفسه، ولا قديمًا أزليًّا، ولا خالقًا لما سواه، ولا غنيًّا عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين: أحدهما غني والآخر فقير، وأحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كل منهما شيئًا موجودًا ثابتًا، بل وإذا كان المحدَث جسمًا فكل منهما قائم بنفسه. ومن المعلوم أيضا أن أحدهما ليس مماثلًا للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع؛ وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه؛ وأحدهما غني عن كل ما سواه، والآخر ليس بغني، وأحدهما خالق، والآخر ليس بخالق، فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم، موجودًا بنفسه ليس بموجود بنفسه، غنيًّا عما سواه ليس بغني عما سواه، خالقًا ليس بخالق، فيلزم اجتماع النقيضين على تقدير تماثلهما، وهو منتف بصريح العقل، كما هو منتف بنصوص الشرع»[(١)].

وقال شارح الطحاوية: «وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة، وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب: عظام الصدر، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين، في ظلمات ثلاث، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق ... ومحال توهم عمل الطبائع فيها؛ لأنها موات عاجزة، ولا توصف بحياة، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير، فإذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية؛ فإنه إذا علم بالعقل أن له ربًّا أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره؟! وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينًا وتوحيدًا»[(٢)].

الدليل الرابع: الأدلة الحسية والعلمية:

وهي آيات الله سبحانه في الأنفس والآفاق، وقد كشف العلم الحديث في هذا الباب أمورًا لم تعرف من قبل.

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٢/ ١١٦-١١٧) ، وانظر: «شرح الطحاوية» (١/٦١-٦٢) .

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٣١٦-٣١٧) .

ومن نظر في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك مما انتهت إليهم الرياسة في هذا العلوم، ومثله كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) يجد أن العالم الحقيقي لا يكون إلا مؤمنًا، والعامي لا يكون إلا مؤمنًا، وأن الإلحاد والكفر إنما يكون من أنصاف العلماء وأرباع العلماء ممن تعلم قليلًا من العلم، فخسر بذلك الفطرة المؤمنة، ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان(١).

ومن معالم هذا الدليل:

١- دليل الأنفس، كما قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين: ٤]، وقال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} [الطارق: ٥]، وقال جل وعلا: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: ٢١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقليّة صحيحة، وهي شرعيَّة؛ دلَّ القرآن عليها، وهدى النَّاس إليها، وبيَّنها وأرشد إليها، وهي عقليَّة؛ فإنَّ نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة، ثمَّ من علقة، هذا لم يُعلم بمجرَّد خبر الرسول، بل هذا يعلمه النَّاس كلهم بعقولهم؛ سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر، لكنَّ الرسول أمر أن يُستدلَّ به، ودلَّ به، وبيَّنه، واحتجَّ به؛ فهو دليل شرعيٌّ؛ لأنَّ الشارع استدلَّ به، وأمر أن يُستدلَّ به؛ وهو عقليٌّ؛ لأنّه بالعقل تُعلم صحته»(٢).

٢- ومن معالم هذا الدليل دليل الهداية، كما قال تعالى: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠].

٣- ومنها دليل الآفاق، كما قال سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣].

الدليل الخامس: آيات الأنبياء وكرامات الأولياء:

وهي تشهد بصدق الأنبياء، وتدل على الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لأنها أمور خارجة عن قدرة البشر يجريها الله سبحانه على يد رسله تأييدًا لهم، وكرامة الولي آية للنبي؛ لأنه ما تحقق له ذلك إلا باتباع النبي.

وسيأتي - إن شاء الله - حديث عن هذا المسألة بتفصيل وتوسع في (الإيمان بالرسل).

---

(١) راجع للتوسع في هذا الموضوع: «وجود الله» للشيخ يوسف القرضاوي، «التعريف بدين الإسلام» للشيخ علي الطنطاوي، «إيماننا الحق بين النظر والدليل»، «الوجود الحق» لفهمي هويدي، «الله جل جلاله» لسعيد حوى، وغيرها.

(٢) «النبوات» لابن تيمية (١/ ٢٩٢-٢٩٣) .

الدليل السادس: إجابة الدعوات:

إن الله سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويكشف السوء إذا صدق الداعي في اللجوء إلى الله وأتى بشروط الإجابة[١].

قال تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: ٧٦، ٧٧]، وقال سبحانه: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، والآيات في هذا كثيرة، والأحاديث في استجابة الله لدعاء رسوله ﷺ مدونة في كتب السنة ودلائل النبوة، وشهرتها تغني عن الاستشهاد بها، وكذلك ما وقع للصحابة والتابعين لهم بإحسان.

بل قد يجيب الله سبحانه دعوة المضطر والمظلوم إذا أخلص في اللجوء إلى الله حتى من غير المسلمين، فقد استجاب الله للمشركين حين دعوا الله مخلصين له الدين: {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: ٢٢، ٢٣].

الدليل السابع: الاستدلال بأسمائه سبحانه وصفاته:

وهذا الطريق قليل سالكه، وهو طريق الخواص- كما يسميه ابن القيم-[٢]، وحقيقته: الاستدلال بالأسماء والصفات على وحدانيته سبحانه وصدق رسله وغيرهما من حقائق الإيمان. وهو كقول بعضهم: عرفت ربي بربي، وقول بعض الصحابة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا[٣]

وقيل لذي النون: بم عرفت الله ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي[٤].

وقيل لعبد الله بن المبارك: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه[٥]. وقيل لبعض العارفين: بم عرفت الله؟ قال: بالله[٦].

---

(١) انظر التفصيل في: «الوابل الصيب»، و«الجواب الكافي» لابن القيم.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/٣٣٣) ، «شرح الطحاوية» (١/٥٢) .

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (ح٦٣٣١) ، «صحيح مسلم» (ح١٨٠٧) .

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٩) .

(٥) «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٩) .

(٦) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٥١٢) .

وبيان كيفية الاستدلال بهذا الطريق سيكون وفق المسائل التالية[١]:

الأولى: بيان معنى اسم الله (الشهيد) و(المؤمن)[٢]:

واسمه تعالى (المؤمن) له معنيان:

أحدهما: المصدق الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه، وهو الشاهد هنا[٣].

الثاني: المصدق لعباده الصالحين بما وعدهم من الثواب، والمصدق للكافرين بما أوعدهم من العقاب.

أما (الشهيد) فمعناه: الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء، ومشاهد له عليم بتفاصيله[٤].

الثانية: الأصل في الاستدلال بهذا الطريق:

الاستدلال على وجود الله يكون بثلاثة طرق:

١- بقوله وكلماته، كما في قوله سبحانه : {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: ٥١].

٢- بأفعاله ومخلوقاته، كما في قوله سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣][٥].

٣- بأسمائه وصفاته، كما في قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣]، قال ابن القيم: «فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به»[٦].

وقال ابن تيمية: «ولهذا كان عامة أهل السنة من أصحابنا وغيرهم على أن الله يسمى دليلًا»[١]. فهذه ثلاثة مناهج للاستدلال على وجود الله تعالى بأسمائه وصفاته في باب أصول الإيمان.

---

(١) وذلك حسب المادة المدونة في المرجع الرئيس (شرح الطحاوية) ، وما قرره الإمام ابن القيم في (المدارج) .

(٢) لأن الشارح سيذكرهما كمثال للاستدلال.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٤٣٣/٣) ، «شرح الطحاوية» (٥١/١) .

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨٩) ، «مدارج السالكين» (٤٣٢/٣) ، «شرح الطحاوية» (٥١/١) .

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (٤٣٣/٣) ، «شرح الطحاوية» (٥١/١) .

(٦) «مدارج السالكين» (٣٣٣/٣) .

الثالثة: كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته:

قال ابن القيم – ونقله عنه الشارح –: «فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا؟

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت، وشأنه أجل وأعلى، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء كله من لوازم ذاته، يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياة كلها له، والعلم كله له، والقدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنًا وظاهرًا، ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر، وهو – مع ذلك – كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟ ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به، وجوزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة»(٢).

فأنت ترى من هذا النص أن الاستدلال جرى باسم الله (الشهيد) لتقرير وحدانية الله وربوبيته؛ فإن الإيمان باسم الله (الشهيد) يقتضي المراقبة الدائمة لله تعالى؛ لأن الشهيد هو الذي لا يخفى عليه خافية، فكيف يليق بالعبد أن يشرك بالله شيئًا أو يعصيه، وهو يعلم أن الله شهيد على كل شيء، ومطلع على كل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٧) .

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٣) .

طريق إثبات توحيد الربوبية عند المتكلمين:

من أشهر الأدلة العقلية في إثبات الوحدانية في الربوبية عند المتكلمين ما يسمونه بـ (دليل التمانع)، وتقرير هذا الدليل على النحو التالي: لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما، مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما أن يحصل مرادهما، أو لا يحصل مرادهما، أو يحصل مراد واحد منهما.

فالأول ممتنع؛ لأنه جمع بين النقيضين، والثاني ممتنع؛ لأنه سلب للنقيضين، ثم هو يقتضي عجز الاثنين، والعاجز لا يصلح للألوهية، والثالث – وهو إذا حصل مراد أحدهما دون الآخر – كان هذا هو الإله القادر والآخر لا يصلح للألوهية لعجزه[١].

وزعموا أن هذا الدليل العقلي مأخوذ من قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]، ووجه الدلالة: أنه إن أريد بالفساد في الآية {لفسدتا} عدم التكون، فتقريره: أنه لو تعدد الإله لم تتكوَّن السماء والأرض؛ لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما، والكل باطل؛ أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة، وأما الآخران فلما مر، وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام، فتقريره: أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر بحكم اللزوم العادي، فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام الذي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد، ويختل الانتظام الذي به بقاء الأنواع وترتب الآثار[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – مبينًا وجه الدلالة على الوحدانية في هذه الآية: «والمقصود هنا أن في هذه الآية بيانَ امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشئ عن عبادة ما سوى الله تعالى؛ لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته، من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم، وما سوى الله لا يصلح، فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة، فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته، كما أنه هو الرب الخالق بمشيئته»[٣].

نقد هذا الدليل:

---

(١) انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص٢٧٨) ، «نهاية الأقدام» (ص:٥٧) ، «أبكار الأفكار» للآمدي (٩٧/٢) ، «شرح المقاصد في علم الكلام» (٦٢/٢) .

(٢) «شرح المقاصد في علم الكلام» (٦٣/٢) .

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٣٣٤/٣-٣٣٥) .

١- دليل التمانع الذي قرره المتكلمون دليل عقلي صحيح فيما أراد المتكلمون إثباته وهو نفي الشريك عن الله في الخلق والإيجاد، لكنه قاصر عن إثبات نفي الشريك عن الله في استحقاق العبادة وهو مقصود القرآن، يقول ابن تيمية: «الذي ذكره النظّار عن المتكلمين الذي سموه دليل التمانع برهان تام على مقصودهم، وهو امتناع صدور العالم عن اثنين، وإن كان هذا هو توحيد الربوبية، والقرآن يبين توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية»[١].

٢- قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢] لا يدل على التمانع الذي ذكروه من أي وجه، وإنما سيقت الآية لتقرير وحدانية الله تعالى في استحقاق العبادة لا في الخلق، وبيان ذلك من وجوه؛ لأن المشركين الذين نزلت عليهم هذه الآية لم يعتقدوا أن هناك خالقًا مع الله ، بل كانوا مقرين بأن خالق العالم ومدبره هو الله وحده ، قال عز وجل: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت: ٦١]، وإنما كان شركهم بعبادة غير الله من الأنبياء والملائكة والصالحين والكواكب والأوثان، ولهذا كانت دعوة الرسل لأقوامهم إلى عبادة الله وحده[٢].

٣- أنه سبحانه أخبر في الآية أنه {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ}، ولم يقل: أرباب[٣]، ومن المعلوم لغة وشرعًا أن مدلول لفظ (الرب) غير مدلول لفظ (الإله)، فلفظ (الرب) يدل على التربية، ومن معاني التربية: الخلق والإيجاد والتدبير ، ولفظ (الإله) يدل على استحقاق العبادة؛ لأن الإله هو المألوه، أي: المعبود[٤]، قال ابن تيمية: «ومقصود القرآن توحيد الإلهية، وهو مستلزم لما ذكروه من غير عكس»[٥].

٤- وأيضًا فإنه سبحانه قال في الآية: {لَفَسَدَتَا}، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا، ومعناه: لو كان فيهما - وهما موجودتان - آلهة سواه لفسدتا[٦]، فالنتيجة التي انتهى إليها دليل التمانع منع وجود مخلوق إذا كان هناك خالق مع الله، والآية عبرت بالفساد، وهو لا يكون إلا بعد الوجود.

يوضح ذلك ابن تيمية قائلًا: «هذه الآية ليس المقصود بها ما يقوله من يقوله من أهل الكلام من ذكر دليل التمانع الدال على وحدانية الرب تعالى، فإن التمانع يمنع وجود المفعول، لا يوجب فساده بعد وجوده»[٧]، ويقول أيضًا: «الفساد ليس هو امتناع الوجود الذي يقدَّر عند تمانع الفاعلَين إذا أراد

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٣٥٤/٩) ، وانظر: «منهاج السنة النبوية» (٣١٢/٣) لابن تيمية.

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٣٤٤/٩ - ٣٤٥) .

(٣) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١٤٠/١) .

(٤) انظر: «لسان العرب» (١١٤/٢) ، (١٥٤٦/١٧) .

(٥) «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٣٦٩) .

(٦) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١٤٠/١) .

(٧) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٨٥٦/٢) لابن تيمية.

أحدهما شيئًا وأراد الآخر نقيضه، ولا هو امتناع الفعل الذي يقدر عن كون المفعول الواحد لفاعلين، فإن هذا كله يقتضي عدم الوجود»[١].

والحاصل أن استدلال المتكلمين بالآية على التمانع باطل من وجوه:

أولًا: أنه قال: {آلهة}، ولم يقل: أرباب.

وثانيًا: أنه قال: {فيهما}، وهذا يدل على وجودهما.

وثالثا: أنه قال: {لفسدتا}، ولم يقل: لم توجدا.

رابعًا: واقع المشركين حيث يقرون بالربوبية وينكرون توحيد الألوهية.

الغاية في التوحيد:

الغاية في التوحيد إنما تكون بتحقيق توحيد العبادة، فمن حقق هذا التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وتحقيقه: تخليصه من الشرك والبدع والمعاصي، وتحقيق توحيد العبادة يتضمن تحقيق أنواع التوحيد كلها لتضمنه لها جميعًا، وأخطأ من اعتبر الغاية في التوحيد هو توحيد الربوبية، ولا ريب أن توحيد الربوبية أحد أركان التوحيد الثلاثة لا يصح إيمان عبد إلا بالإقرار به، ولكن ذهب كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية إلى اعتباره الغاية في التوحيد، أي أن من جاء به فقد جاء بغاية التوحيد وكماله، وهذا خطأ من وجوه:

١- أن المشركين أقروا به فلم يدخلهم في الإسلام، كما مر.

٢- أنه أمر قد فطر عليه البشر، فلو كان هو الغاية لما كان هناك حاجة إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب، وقد سبق بيان ذلك في دليل الفطرة.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد»[٢].

أقسام الشرك في الربوبية:

الشرك في الربوبية قسمان:

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٩/٣٧١) .

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٢٥) .

الأول: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون؛ إذ قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول، والنفوس، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود، كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر، ومن هذا شرك من عطّل أسماء الرب وأوصافه، من غلاة الجهمية، والقرامطة.

الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر، كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم، ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم، فإنّ هذه من خصائص الربوبية[١].

المخالفون في توحيد الربوبية:

الفرق التي خالفت في توحيد الربوبية هي: الثنوية، والمانوية، والمجوس، والقدرية، والفلاسفة، وكثير من مشركي العرب، والرافضة، وغلاة الصوفية وغيرهم.

ولم تذهب طائفة منهم إلى إثبات خالقَين متماثلين في الصفات والأفعال، بل لم يوجد القول به عند طائفة من البشر بعد استقراء مقالاتهم، وإنما كان نوع شركهم هو اعتقادهم أن ثمَّ خالقًا خلق بعض العالم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات، بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية، الذين يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين: أحدهما أنها محدثة، فتكون من جملة المخلوقات له، والثاني أنها قديمة، لكنها لم تفعل إلا الشر، فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور»[٢].

---

(١) انظر: «الداء والدواء» (ص: ٢٩٩-٣٠١)، «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٢٦-٢٧) .

(٢) «التدمرية» (ص: ١٧٧-١٧٨)

وقال شارح الطحاوية: «ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقًا خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفه الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس، أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أمورًا محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئًا من نفع أو ضر، بدون أن يخلق الله ذلك»(١).

وقال أيضًا: «ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما، متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين»(٢).

وقد أثبت ذلك أيضًا أبو عيسى الوراق - وقد كان مجوسيًّا فأسلم، فهو عارف بمذاهب القوم -(٣).

أقوال المخالفين في الربوبية:

١- المجوس: أثبتوا أصلين اثنين، مدبرين قديمين؛ يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمون أحدهما: النور والآخر الظلمة، وقالوا : إن النور أزلي (قديم)، والظلمة محدثة(٤).

٢- الثنوية: هم أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان والأجناس، والأبدان والأرواح(٥).

فلم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال كما ترى، وإن قالوا بتساويهما في القدم.

٣- المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وزعم

---

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٣٨) .

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٧) .

(٣) انظر: «الملل والنحل» (٤٩/٢) للشهرستاني.

(٤) انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٣٧-٣٨) .

(٥) «الملل والنحل» (٢/ ٤٩) .

أنهما لم يزالا قويين حساسين، داركين، سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس، والصورة والفعل، والتدبير متضادان. وفي الحيز متحاذيان، تحاذي الشخص والظل(١).

وقد وضع الشهرستاني جدولا لبيان الفروق عندهم بين النور والظلمة.

٤- النصارى القائلون بالتثليث:

يقول شارح الطحاوية : «وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد.

وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التعبير عنه، لا يكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم! والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص»(٢) (٣).

٥- القدرية: لقولهم: إن العبد يخلق فعله.

٦- الفلاسفة الدهرية: في قولهم بحركة الأفلاك وأنها تسعة، وأن التاسع - وهو الأطلس - يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يحدث فيه ما يقدره في الأرض(٤).

٧- كثير من مشركي العرب وغيرهم: قد يظن في آلهتهم شيئًا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

٨- غلاة الصوفية: في زعمهم بأن الأولياء ينفعون ويضرون ويتصرفون في الكون، وكقول البوصيري في مدح الرسول ﷺ:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علمَ اللوح والقلم

---

(١) «الملل والنحل» (٢/ ٤٩) .

(٢) «شرح الطحاوية» (١/ ٢٧) .

(٣) ويشهد لهذا القول ما قرره القس بولس سباط عن معتقدهم في هذا الباب، حيث قال: «يرى النصارى أن الباري تعالى جوهر واحد موصوف بصفات الكمال، وله ثلاث خواص ذاتية كشف المسيح عنها القناع وهي: الآب، والابن، وروح القدس». ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية، «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، «محاضرات في النصرانية» للشيخ أبي زهرة، وغيرها.

(٤) راجع إن شئت تفصيل قولهم ونقده في: «الفتاوى» (٦/ ٥٤٦) وما بعدها.

٩- الروافض الاثنا عشرية الملقبون في عصرنا بالشيعة: لقولهم: إن الرب هو الإمام، واعتقادهم أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها كيف شاء، وقولهم: إن السحاب والرعد هو من أمر الأئمة، ومسخر للأئمة وغير ذلك إسناد الحوادث الكونية إلى الأئمة، وقولهم بحلول جزء إلهي في الأئمة.

جاء في أخبارهم أن عليًّا -كما يفترون عليه- قال: أنا رب الأرض الذي يسكن الأرض به[١].

وعقد صاحب الكافي بابًا بعنوان: «باب أن الأرض كلها للإمام»[٢]، ومما جاء فيه: «أما علمت أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء، جائز له ذلك من الله...»[٣].

ويفترون على بعض أئمة أهل البيت من باب ذمهم والزراية بهم، فيقولون: عن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله - عليه السلام - فأرعدت السماء وأبرقت، فقال أبو عبد الله - عليه السلام -: «أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم»، قلت: من صاحبنا؟ قال: «أمير المؤمنين - عليه السلام -»[٤].

وترد عندهم روايات تدعي بأن جزءًا من النور الإلهي حل بعليٍّ، قال أبو عبد الله: «ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا»[٥] ، «ولكن الله خلطنا بنفسه...»[٦].

وهذا الجزء الإلهي الذي في الأئمة -كما يزعمون- أعطوا به قدرات مطلقة، ولذلك فإنهم وضعوا ما يسمونه بـ«معجزات الأئمة» - وتبلغ مئات الروايات — وجمعوا هذه الأساطير في مجلدات جعلوا الأئمة كرب العالمين - تعالى الله وتقدس عما يقولون - في الإحياء والإماتة والخلق والرزق[٧].

شبهات الملحدين حول توحيد الربوبية:

يقول الشيخ عمر الأشقر: «نسمع ونقرأ شبهات في القديم، وتقال اليوم، يحاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الكون، وسنحاول أن نتعرض لبعض هذه الشبهات، ثم نبين ما فيها من باطل».

١- القول بالمصادفة:

---

(١) «مرآة الأنوار» (ص٥٩) ، وقد نقل ذلك عن «بصائر الدرجات» للصفار.

(٢) انظر: «أصول الكافي» (١/٤٠٧-٤١٠) .

(٣) «أصول الكافي» (١/٤٠٩) .

(٤) «الاختصاص» (ص٣٢٧) ، «بحار الأنوار» (٢٧/٣٣) ، «البرهان» (٢/٤٨٢) .

(٥) «أصول الكافي» (١/٤٤٠) ، «بحار الأنوار» (١/٤٤١-٤٤٢) .

(٦) «أصول الكافي» (١/٤٣٥) .

(٧) انظر: «بحار الأنوار» باب جوامع معجزاته (يعنون عليًا) (٤٢/١٧-٥٠) ، وفيه ١٧ رواية، وباب ما ورد من غرائب معجزاته (٤٢/٥٠-٥٦) ، وحتى قبره جعلوا له معجزات لا يقدر عليها إلا رب العباد، وعقد لهذا صاحب البحار بابًا بعنوان باب (ما ظهر عند الضريح المقدس من المعجزات والكرامات) (٤٢/٣١١-٣٣٩) .

بعد توضيح الدليل القرآني الذي يخاطب العقول ويلزمها بالاعتراف بوجود الخالق المعبود يبدو القول بأن هذا الكون خلق مصادفة من غير الخالق ليس قولا بعيدا عن الصواب فحسب، بل قول بعيد عن المعقول، يدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا، فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بدًّا من التسليم به.

لقد وجد من يقول: «لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين، فلا تستبعد أن نجد في الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في المادة لبلايين السنين.

يقول وحيد الدين خان[١] – بعد نقله لهذه الفقرة من كلام هكسلي–[٢]: «إن أي كلام من هذا القبيل لغو مثير بكل ما تحويه هذا الكلمة من معان، فإن جميع العلوم تجهل إلى يوم الناس هذا أية مصادفة أنتجت واقعًا عظيمًا ذا روح عجيبة في روعة الكون».

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقالة قوله: «إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة».

ويقرر وحيد الدين خان أن الرياضيات التي تعطينا نكتة المصادفة هي نفسها التي تنفي أيّ إمكان في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة.

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريستي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون صدفة. قال: «لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيدًا، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقى كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فإمكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة، وإمكان أن تخرج الدراهم (١–١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين»[٣]، وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟ إن حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خياليًّا يصعب حسابه فضلًا عن تصوره.

---

(١) «الإسلام يتحدى» (ص: ٦٦) .

(٢) هكسلي: هو الكاتب الملحد الذي كتب كتابه المعروف (الإنسان يقوم وحده) ، فسخر الله له عالما من ملته هو أ. كريستي مدريسون (رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو سابق في المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة) ، فسطر كتابه القيم (الإنسان لا يقوم وحده) ردًّا على هكسلي، وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .

(٣) انظر: «العلم يدعو إلى الإيمان» (ص: ٥١) .

إن كل ما في الكون يحكي أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، ولكن الإنسان ظلوم جهول، قال تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [عبس: ١٧ - ٣٢].

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في ذلك كله في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدر الذي تشارك فيه الأرض والسماء، صدق الله {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}، وصدق الله في وصفه للإنسان: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢].

٢- قالوا الطبيعة هي الخالق:

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادية، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي توجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

إذا قالوا نعني بالطبيعة الكون نفسه، فإننا لا نحتاج الرد عليهم؛ لأن فساد قولهم معلوم مما مضى، إن هذا القول يصبح ترديدًا للقول السابق بأن الشيء يوجِد نفسه، أي أنهم يقولون: الكون خلق الكون، فالسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وقد بيّنا أن العقل الإنساني يرفض التسليم بأن الشيء يوجِد نفسه، ونزيد الأمر إيضاحًا فنقول: والشيء لا يخلق شيئًا أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلًا ولا سمعًا ولا بصرًا، فكيف تخلق إنسانًا سميعًا عليمًا بصيرًا؟! هذا لا يكون.

فإن قالوا: خلق ذلك كله مصادفة، قلنا: ثبت لدينا يقينًا أن لا مصادفة في خلق الكون، وقد بينا ذلك فيما سبق.

٣- نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها):

وكان مما ساعد على انتشار الوثنية الجديدة (القول بأن الطبيعة هي الخالق) هو ما شاهده العلماء الطبيعيون من تكون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان، وتكوُّن بكتيريا تأكل الطعام فتفسده، فقالوا:

هاهي ذي حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها، وراجت هذا النظرية التي مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) في قلوب الضالين التائهين بعيدًا عن هدى الله الحق، لكن الحق ما لبث أن كشف باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور باستير الذي أثبت أن الدود المتكون، والبكتيريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتيًّا من الطبيعة، وإنما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت العلماء بصدق قوله، فوضع غذاءً وعزله عن الهواء وأمات البكتيريا بالغليان، فما تكونت بكتيريا جديدة، ولم يفسد الطعام ، وهذه هي النظرية التي قامت عليها الأغذية المحفوظة (المعلبات)[١].

٤- الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون:

ويرى فريق آخر أن الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون، وهذا تفسير الذين يدّعون العلم والمعرفة من القائلين بأن الطبيعة هي الخالق، فهم يقولون: إن هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره وتنظم أموره في كل جزئية، والأحداث التي تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين، مثله كمثل الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهرًا طويلًا، فإنها تسير بذاتها بدون مسير.

وهؤلاء في واقع الأمر لا يجيبون عن السؤال المطروح: من خلق الكون؟ ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التي يعمل الكون بها، هم يكشفون لنا كيف تعمل القوانين في الأشياء، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التي تحكمه.

يقول وحيد الدين خان: «كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيرًا لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة؟ حتى إن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية.

إن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه؛ فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

إن الطبيعة تفسر شيئًا من الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير، واقرأ هذه المحاورة التي يمكن أن تجرى بين رجل نابه، وأحد الأطباء الأفذاذ في علمهم:

السائل: ما السبب وراء احمرار الدم؟

(١) «كتاب التوحيد» للزنداني (٧٤/٢) .

الطبيب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها ١/ ٧٠٠ من البوصة.

السائل: حسنًا، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

الطبيب: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلويين)، وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب.

السائل: هذا جميل، ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل (الهميوجلويين)؟

الطبيب: إنها تصنع في كبدك.

السائل: عجيب؟ ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطًا كليًّا وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟

الطبيب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

السائل: ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا يا سيادة الطبيب؟

الطبيب: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

السائل: ولكن لما تهدف هذه القوى دائمًا إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدنيا، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

الطبيب: لا تسألني عن هذه، فإن علمي لا يتكلم إلا عما يحدث، وليس له أن يجيب: لماذا يحدث؟

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون، ولا شك أنه قد أبان لنا كثيرا من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها. ومثل الكون كمثل آلة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها إلا أنها تدور، ولكن لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الآلة بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلها.

هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الآلة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها؟ كيف يفهم منطقيًّا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الآلة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتيًّا؟![١].

٥- الطبيعة قوة:

---

(١) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان (ص: ٢٩-٣١) وقد ضمن كلامه نقولا عن غيره من علماء الغرب.

فإن وجد من يقول بأن الطبيعة قوة أوجدت الكون، وهي قوة حية سمعية بصرية حكيمة قادرة، فإننا نقول لهم: هذا صواب وحق، وخطؤكم في أنكم سميتم هذه القوة (الطبيعة)، وقد دلتنا هذه القوة المبدعة الخالقة على الاسم الذي تستحقه وهو (الله)، وهو عرّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فعلينا أن نسميه بما سمى به نفسه سبحانه وتعالى.

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم:

هؤلاء الذين نسبوا الخلق إلى الطبيعة لهم سلف قالوا قريبًا من قولهم، وهم الدهرية الذين نسبوا الأحداث إلى الدهر، فقد شاهدوا أن الصغير يكبر، والكبير يهرم، والهرم يموت بمرور الزمان، وتعاقب الليل والنهار، فنسبوا الحياة والموت إلى الدهر {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: ٢٤]، أولئك نسبوا الأحداث إلى الزمان وهؤلاء إلى ذوات الأشياء فهما صنوان في الضلال[1].

---

(١) «العقيدة في الله» للأستاذ عمر الأشقر (ص٧٧-٨٣) . وراجع للتوسع في هذا الموضوع: البراهين العقلية على وجود الله للسعدي، الله جل جلاله لسعيد حوى، الإلحاد لعبد الرحمن عبد الخالق، وغيرها.

توحيد الأسماء والصفات

والاسم علم على الذات والصفة[١]، والصفة هي ما تقوم بالذات [٢].

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لا شريك له في ذلك، ولا مثيل، أو كما قال شيخنا محمد بن عثيمين: هو إفراد الله سبحانه بما يختص به من الأسماء والصفات.

ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى**﴾[٣]، وقوله: ﴿**لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[٤]، وقوله ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**﴾[٥]، يعني الوصف الأكمل.

ووجه الاستدلال: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد في لغة العرب القصر يعني الحصر والاختصاص؛ وفي الشواهد المذكورة قدم الخبر وأخر المبتدأ لتحقيق هذا الغرض البلاغي العظيم، فالأسماء الحسنى- أي البالغة في الحسن كماله وغايته - والمثل الأعلى، وهو الوصف الأكمل لله وحده لا شريك له في ذلك ولا مثيل.

مجمل اعتقاد أهل السُّنة في باب توحيد الأسماء والصفات:

يعتقد أهل السنة أن من الإيمان بالله سبحانه الذي أمر الله به ورسوله ﷺ: الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ ولهذا فهم يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ فلا ينفون ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن

---

(١) قال ابن القيم: «أسماء الرب تعالى هي نعوت» (بدائع الفوائد ٢٤/١). وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: «أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به» (فتاوى اللجنة الدائمة/ جمع وترتيب أحمد الدويش ١١٦/٣)

(٢) قالت اللجنة الدائمة: «الصفات هي نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمة والسمع والبصر» (الموضع نفسه من المصدر السابق).

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٤) سورة طه آية ٨.

(٥) سورة النحل آية ٦٠.

مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفؤ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه[١].

طريقة أهل السُّنة فيما لم يرد نفيه ولا إثباته:

طريقة أهل السُّنة فيما لم يرد فيه نص -كالألفاظ التي أحدثها أهل الكلام وتنازعوا فيها مثل الجسم والعرض والجوهر وحلول الحوادث والجهة والحركة ونحوها- أنهم يتوقفون في هذه الألفاظ وأمثالها؛ فلا يثبتون لعدم ورود الدليل المثبت، ولا ينفون لعدم الدليل النافي وينكرون على من أثبت لأنه أثبت بلا دليل، وينكرون على النافي لأنه نفى بلا دليل.

أما بالنسبة للمعنى فيستفصلون عن المراد؛ فإن أراد المثبت أو النافي حقًّا بدلالة الكتاب أو السنة قُبل منه هذا وأنكر عليه اللفظ المبتدع، وإن أراد باطلًا بدلالة الكتاب أو السنة على بطلانه رُدَّ عليه هذا المعنى الباطل كما أنكر عليه اللفظ المبتدع، وإن أراد معنى لم يرد في إثباته أو نفيه دليل لزم التوقف فيه كما نتوقف في اللفظ، ذلك أن التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده، وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده. والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضًا جمليًّا أو يبينوا حاله تفصيلًا ويحكم عليهم بالكتاب والسُّنة ولا يحكم به على الكتاب والسُّنة[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وما تنازع فيه المتأخرون، نفيًا وإثباتا، فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحدًا على إثبات لفظ أو نفيه، حتى يعرف مراده، فإن أراد حقًّا قُبل، وإن أراد باطلا رُدّ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يُقبل مطلقًا ولم يُرد جميع معناه، بل يُوقف اللفظ ويُفسّر المعنى، كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك، فيقال لمن قال مثلًا: إن الله في جهة: أتريد بذلك أن الله فوق العال، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات. فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل»[٣].

---

(١) انظر الواسطية مع شروحها: «التنبيهات السنية» للرشيد ص١٨ وما بعدها، «الروضة الندية» للفياض ص٢١ وما بعدها.

(٢) «شرح الطحاوية» (١/٧٠-٧١).

(٣) «التدمرية» ص٦ وما بعدها .

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: «وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو إثبات، بل اعتصموا بالكتاب والسنة، ورأوا ذلك هو الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقا يجب الإيمان به، وإن لم تعرف حقيقة معناه، وكل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم، فإن كان مراده حقًّا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفي أو إثبات قلنا به؛ وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به، ورأوا أن الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول وهي طريقة الأنبياء والمرسلين»[١].

من أقوال أئمة السنة في بيان مذهبهم:

- قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث»[٢].

- وقال نعيم بن حماد -شيخ البخاري-: «من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيه»[٣].

- وقال الإمام الشافعي: «لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا جهلُها، فمن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فيعذر بالجهل»[٤].

- وقال الأوزاعي: «كنا والتابعون نقول: إن الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته»[٥].

- وقال ابن عبد البر: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا

---

(١) «الفتاوى» ٦/ ٣٦-٣٧ .

(٢) «الفتاوى» ٥/٥٨، وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص٨٣، و«المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» ١/٢٧٧-٢٧٨.

(٣) «العلو» للذهبي ص ١١٦.

(٤) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ٢/٧٠٢، «مناقب الشافعي» للبيهقي ١/٤١٢-٤١٣، «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص١٦٥.

(٥) «العلو» للذهبي ص١٠٢، الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٠٨.

يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود لا مثبتون، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به الكتاب والسنة وهم أئمة الجماعة»[١].

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله –صلى الله عليه وسلم– من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾» [٢]، والشواهد في هذا الباب كثيرة[٣].

أركان توحيد الأسماء والصفات:

يقوم توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة على ركنين .

١– الإثبات: وهو إثبات ما أثبته الله ورسوله إثباتا من غير تكييف ولا تمثيل.

٢– النفي المتضمن إثبات كمال ضده: وهو نفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ، مع اعتقاد ثبوت كمال ضده تنزيها لله عز وجل بلا تحريف أو تعطيل كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[٤].

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ نفي يتضمن إثبات عموم كماله سبحانه.

﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ إثبات لصفة السمع والبصر على ما يليق بجلاله سبحانه.

ففي الآية نفى «المثْل وأثبت الوصف»[٥].

---

(١) «الفتاوى» ٥/٨٧، وانظر: «التمهيد» لابن عبد البر ١٤٥/٧.

(٢) «الفتاوى» ١٩٥/٥، وانظر: منهاج السنة : ١١١/٢.

(٣) انظر كتب أئمة السنة وسلف الأمة، والحموية لشيخ الإسلام، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم، وغيرها.

(٤) سورة الشورى آية ١١.

(٥) «شرح الطحاوية» ٨٧/١.

قال شيخ الإسلام: «وهو سبحانه قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات»[1]، وقال في موضع آخر: «إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي، فالإثبات كإخباره أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، والنفي كقوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾»[2].

ومن القواعد المعلومة عقلًا والمقررة سلفًا والمؤيَّدة بنصوص الكتاب والسنة أن «كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده»[3].

وهـــذان الركـــنان قد بعـــث الله عز وجل ببيانهما رسله قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصَّل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفَوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل»[4].

ثم ساق الشواهد لذلك من الكتاب والسنة، فذكر ثمانية أدلة للنفي المجمل وواحدًا وعشرين دليلا للإثبات المفصل.

وهذه طريقة القرآن، قال شارح الطحاوية: «يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلًا، والنفي مجملًا، عكس طريقة أهل الكلام المذموم»[5].

وكان نهج السلف يقوم على اتباع القرآن في ذلك، ولذا كانت طريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**، ففي قوله: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** رد للإلحاد والتعطيل[6].

---

(١) «الواسـطيـة» ص٣٧.

(٢) »التـدمـــريـة» ص ٥٧.

(٣) «شرح الطحاوية» ٦٨/١، ولتوضيح ذلك بمثال نقول: قوله سبحانه: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، يدل أولا بدلالة المطابقة على نفي الظلم، ويدل ثانيا بدلالة التضمن على إثبات كمال العدل، فهو يدل على أصلين نفي الظلم وإثبات كمال العدل، وقوله سبحانه: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥]. يدل على أمرين: الأول نفي السِّنَة والنوم، والثاني إثبات كمال الحياة والقيومية، وهكذا كل نفي يأتي في الكتاب والسنة فإنما هو لإثبات كمال ضده.

(٤) «التدمرية» ص ٨.

(٥) «شرح الطحاوية» ٦٩/١.

(٦) انظر: «التدمرية» ص٨.

قال العلامة الشنقيطي –رحمه الله تعالى–[1]: «اعلموا أن مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخلَّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضل، وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها القرآن العظيم.

أحد هذه الأسس الثلاثة: هو تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيءٌ من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾، ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾، ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ**﴾.

الثاني من هذه الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿**قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**﴾، والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال في حقه: ﴿**وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى**﴾، فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله –صلى الله عليه وسلم– وينزه ربه جل وعلا عن أن تشبه صفته صفة المخلوقين، وحيث أخل بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال، لأن من تنطع بين يدي رب السموات والأرض وتجرأ على الله بهذه الجرأة العظيمة ونفى عن ربه وصفًا أثبته لنفسه، فهذا مجنون، فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال؛ فكيف يليق لمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السموات والأرض ويقول: هذا الذي وصفتَ به نفسك لا يليق بك ويلزمه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوله وألغيه وآتى ببدله من تلقاء نفسي من غير استناد إلى الكتاب أو السُّنة. سبحانك هذا بهتان عظيم! ومن ظن أن صفة خالق السموات والأرض تشبه شيئًا من صفات الخلق فهذا مجنون جاهل، ملحد ضال، ومن آمن بصفات ربه جل وعلا منزهًا ربه عن تشبيه صفاته بصفات الخلق فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، وهذا التحقيق هو مضمون قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾، فهذه الآية فيها تعليم عظيم يحل جميع الإشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع، وذلك لأن الله قال: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ بعد قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن الله يشير للخلق ألا ينفوا عنه سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر، وأن ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه

(١) قال ذلك في موضوع أركان الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات، لكنه أطلق عليها (الأسس)، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وبصره على أساس ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾. فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وكل هذا حق ثابت لا شك فيه.

إلا أن صفة رب السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين، فمن نفى عن الله وصفًا أثبته لنفسه، فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله، سبحانك هذا بهتان عظيم! ومن ظن أن صفة ربه تشبه شيئًا من صفة الخلق، فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له، يدخل في قوله تعالى : ﴿**تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ومن يسوي رب العالمين بغيره فهو مجنون[١]»[٢].

بيان صحة مذهب أهل السُّنة بالأدلة السمعية والعقلية[٣]:

أما السمع فمن أدلته:

١- قوله سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[٤].

٢- وقوله سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[٥].

٣- وقوله: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾[٦].

فالآية الأولى دلت على وجوب الإثبات للأسماء والصفات على ما يليق بالله سبحانه ويختص بعظمته، والثانية دلت على وجوب نفي التمثيل تنزيها لله بلا تعطيل، والثالثة دلت على وجوب التوقف فيما لم يرد إثباته ولا نفيه.

---

(١) الأساس الثالث لم يشر إليه الشيخ بوضوح وهو: قطع الطمع عن إدراك الكيفية، وهو داخل في الأساس الثاني وهو تنزيه الله سبحانه عن مماثلة المخلوقين.

(٢) «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» ص ٨-٩.

(٣) الأدلة السمعية: هي الكتاب والسنة؛ وسميت سمعية لأنها تتلقى بالسمع، والعقلية: هي ما تدرك بالعقل، ويقال أيضًا: النظر والأثر، والعقل والنقل، ومن المعلوم أن العقل الصريح – وهو السالم من الشبهات والشهوات – لا يخالف النقل الصحيح.

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٥) سورة الشورى آية ١١.

(٦) سورة الإسراء آية ٣٦.

وكتاب الله سبحانه مليء بالشواهد، وقد استشهد شيخ الإسلام ابن تيمية بآيات كثيرة على صحة معتقد أهل السُّنة في الواسطية، حيث بدأ ذلك بقوله: «وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن، وما وصف الله به نفسه في أعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي»، ثم مضى يسرد الآيات في الأسماء والصفات لله سبحانه[١].

قال ابن القيم -رحمه الله-: «قد تطابقت نصوص الكتاب والسنة والآثار على إثبات الصفات لله، وتنوعت دلالتها أنواعًا توجب العلم الضروري بثبوتها وإرادة المتكلم اعتقاد ما دلت عليه، والقرآن مملوء من ذكر الصفات، والسنة ناطقة بما نطق به القرآن، ومقررة له، مصدقة له، مشتملة على زيادة في الإثبات، فتارة يذكر الاسم الدال على الصفة كالسميع البصير العليم القدير العزيز الحكيم، وتارة يذكر المصدر، وهو الوصف الذي اشتقت منه تلك الصفة، كقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾، وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾[٢]. وقوله: ﴿ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي** ﴾[٣]. وقوله: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[٤]، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٥]، وقوله في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك»[٦]، وقوله: «أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق»[٧]، وقول عائشة -رضي الله عنها-: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات»[٨]، ونحوه، وتارة يذكر حكم تلك الصفة كقوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ**﴾[٩]، ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[١٠]. وقوله: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾[١١]، وقوله: ﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ**﴾[١٢]. ونظائر ذلك كثيرة.

---

(١) انظر الواسطية مع «التنبيهات السنية» ص٤٣ وما بعدها.

(٢) سورة الذاريات آية ٥٨.

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٤.

(٤) سورة ص آية ٨٢.

(٥) صحيح مسلم رقم ٢٩٣.

(٦) صحيح البخاري رقم ٦٣٨٢.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٢٩٣٤٨.

(٨) البخاري موقوفًا على عائشة -رضي الله عنها-.

(٩) سورة المجادلة آية ١.

(١٠) سورة طه آية ٤٦.

(١١) سورة المرسلات آية ٢٣.

(١٢) سورة البقرة آية ١٨٧.

ويصرح في الفوقية بلفظها الخاص، وبلفظ العلو والاستواء، وأنه (في السماء) وأنه (ذو المعارج) وأنه (رفيع الدرجات) وأنه (تعرج إليه الملائكة) و(تنزل من عنده)، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأن المؤمنين يرونه بأبصارهم عيانًا من فوقهم، إلى أضعاف ذلك مما لو جمعت النصوص والآثار فيه لم تنقص عن نصوص الأحكام وآثارها، ومن أبين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره، ودعوى المجاز فيه والاستعارة، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين، وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص، إذ يلزم من ذلك محاذير ثلاثة لا بد منها، وهي: القدح في علم المتكلم بها، أو في بيانه، أو في نصحه»[١].

أما الأدلة العقلية فهي كثيرة منها:

أوَّلا: إن أسماء الله وصفاته من أمور الغيب، والقول فيما يجب منها لله أو يجوز أو يمتنع لا يدرك إلا بالسمع، فوجب اتباع السمع في ذلك بإثبات ما أثبته ونفي ما نفاه والسكوت عما سكت عنه؛ ذلك أن الشيء لا يعلم إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو بالخبر الصادق عنه.

ورؤية الله تعالى متعذرة في الدنيا، كما أن الله تعالى لا مثيل له، فلزم الرجوع إلى الخبر الصادق عنه، وهذا هو ما سلكه أهل السُّنة.

ثانيًا: أن نفي الصفات يستلزم نفي الذات؛ لأنه لا يتصور لدى كافة العقلاء وجود ذات مجردة عن الأسماء والصفات، ولذا برئ مذهب أهل السُّنة من التعطيل.

ثالثًا: أنه يستحيل أن يكون الخالق كالمخلوق، والاتفاق في الاسم العام لا يقتضي التماثل عند الإضافة والتخصيص؛ فإنه قد علم بضرورة العقول أن الوجود فيه ما هو موجود قديم واجب بنفسه، وفيه ما هو محدث موجود ممكن بنفسه، فهذان الموجودان اتفقا في مسمى الوجود، فمن لم يثبت ما بين الموجودين من الاتفاق وما بينهما من الافتراق لزمه أن تكون الموجودات كلها قديمة واجبة بأنفسها، أو محدثة ممكنة مفتقرة إلى غيرها، وكلاهما معلوم الفساد بالاضطرار، فتعين إثبات الاتفاق من وجه والامتياز من وجه، ونحن نعلم أن ما امتاز به الخالق الموجود عن سائر الموجودات أعظم مما تمتاز به سائر الموجودات بعضها عن بعض، فإذا كان مثلا الملك والبعوضة قد اشتركا في مسمى الوجود والحياة

(١) مختصر الصواعق ص ٥٥-٥٦.

مع تفاوت ما بينهما، فالخالق سبحانه أولى بمباينته للمخلوقات، وإن حصلت الموافقة في بعض الأسماء والصفات، ولذا نزه أهل السُّنة مذهبهم من لوثـة التكييف والتمثيل[١].

رابعًا: معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات؛ إذ الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها، وقد ضرب شيخ الإسلام ابن تيمية في (التدمرية) مثلين في ذلك، وهما الروح، ونعيم الجنة، فإن ما ورد في القرآن من أوصافهما يعجز المرء عن إدراك كيفيتهما وحقيقتهما، وهما خلق من خلق الله[٢].

وانظر مثلًا – ولله المثل الأعلى – إلى لفظة (رأس) وتغير معناها بحسب ما تضاف إليه مثل رأس الجبل، رأس المال، رأس الوادي، رأس الإنسان، فانظر ما صار من الاختلاف بين هذه المعاني بحسب هذه الإضافات، وهذا مخلوق ضعيف، فما بالك بالبون الشاسع بين صفة الخالق جل وعلا وصفة المخلوق[٣].

خامسًا: ويمكن إثبات صحة مذهب أهل السُّنة عبر ما يسمى بدليل (السبر والتقسيم) عند المناطقة، فيقال: إن الحق إما أن يكون فيما قاله أهل السنة وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، أو فيما قاله غيرهم من أهل التعطيل والتمثيل.

فإن كان الحق فيما قاله أهل السنة فهو المطلوب ويلزم اتباعه، وإن كان الحق فيما قاله هولاء لزم أن يكون قول أهل السنة باطلًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾[٤]. ويقول: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[٥]. وأن يكون أهل السنة وإمامهم رسول الله ﷺ، ومقدمهم خلفاؤه وسائر الصحابة متصفين بأحد الوصفين التاليين:

١– إما الجهل بالحق، ويكون أفراخ اليهود والنصارى والصابئين والمجوس هم أهل العلم به.

٢– أو كتمانه.

---

(١) ينظر تقرير هذا المعنى في: «التدمرية» ص٢٠ وما بعدها، و«الفتاوى» ٥/٣٥٢، وما بعدها.

(٢) انظر: «التدمرية» ص ٤٣ وما بعدها، «الفتاوى» ٥/١١٥، ٣٤٧، ٣٥٤.

(٣) انظر «منهج ودراسات» للشنقيطي ص ٥.

(٤) سورة يونس آية ٣٢.

(٥) سورة سبأ آية ٢٤.

وهذان الوصفان ممتنعان بالضرورة، فإذا امتنع هذان الوصفان فإن امتناع اللازم يدل على امتناع الملزوم، وحينئذ يمتنع أن يكون الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون والتابعون لهم بإحسان على الباطل.

وإذا امتنع ذلك لزم أن يكونوا على الحق، ومن عداهم فعلى الباطل، هذا دليل عقلي واضح[١].

سادسًا: أن يُقال: إذا كان ما قاله الرسول ﷺ في الله سبحانه من أسماء وصفات باطلًا وجرى عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم لزم أن يكون الله تعالى قد أقرهم على الباطل وأعزهم ونصرهم ونشر معتقدهم وهم على خلاف الحق، وهذا يتضمن الطعن في الله تعالى، والله يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (**٤٤**) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (**٤٥**) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (**٤٦**) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (**٤٧**)﴾[٢]. فكيف يقر سبحانه من يفتري عليه، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣]، وهذا الدليل هو ما يسمى بطريق الخواص في الاستدلال، وهو الاستدلال بالله سبحانه، وما يليق به أن يفعله وما يليق به أن لا يفعله على ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته سبحانه وعلى صدق رسله جلَّ شأنه[٤].

أنواع الإلحاد في الأسماء والصفات، وهي أربعة:

أولًا: التحريف، ويعبر عنه بعضهم بالتأويل، وبعضهم بالتفسير، والتعبير بنفي التحريف أولى كما سيأتي.

ثانيًا: التعطيل.

ثالثًا: التمثيل، ويعبر عنه بعض الأئمة بالتشبيه، والتعبير عنه بنفي التمثيل أولى، كما سيأتي.

رابعًا: التكييف.

ويجمع هذه الأنواع كلها وغيرها لفظ الإلحاد، وسنتوقف عند هذه المصطلحات بالتعريف والبيان إن شاء الله، وذلك بعد أن نبين الدليل في اختيار هذه الألفاظ ونفيها.

---

(١) من تقرير شيخنا محمد بن عثيمين -رحمه الله-.

(٢) سورة الحاقة آية ٤٤-٤٧.

(٣) سورة فصلت آية ٥٣.

(٤) وقد سبق بيان شافٍ لهذا الدليل وتقريره.

الأصل في نفي هذه الأنواع:

١- **التحريف:** جاء القرآن الكريم بذمه، قال تعالى: ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[١].

٢- **التمثيل:** جاء القرآن بنفيه، قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[٢].

٣- **التكييف:** نفيه مأثور عن السلف كالإمام مالك وشيخه ربيعة، وقد روي عن أم سلمة - رضي الله عنها- موقوفًا ومرفوعًا، لكن ليس إسناده مما يعتمد عليه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣].

٤- **التعطيل:** فقوله سبحانه: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ بعد قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ نفي للتعطيل؛ لأنه نفى المثل وأثبت الصفة -كما مرَّ-، وإثبات الأسماء والصفات في الكتاب والسُّنة يدل على نفي التعطيل.

٥- **الإلحاد:** قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٤].

أولًا: التـحـريـف:

تعريف التحريف:

التحريف لغة: التغيير والإمالة[٥]، وفي المصباح: «تحريف الكلام العدول به عن جهته»[٦].

وفي الاصطلاح: هو تغيير النص لفظًا أو معنى.

وبعضهم يقول: تغيير ألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير معانيها[٧]، وهذا أخص من الأول.

---

(١) سورة النساء آية ٤٦. المائدة آية ١٣.

(٢) سورة الشورى آية ١١.

(٣) وسيأتي ذكره عند الكلام على التكييف - إن شاء الله تعالى -.

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٥) انظر: «لسان العرب» (مادة حرف) ٩/٤٣.

(٦) «المصباح المنير» (مادة حرف) ١/١٥٨.

(٧) «التنبيهات السنية» للرشيد ص ٢٢.

أقسامه وأمثلته:

التحريف قسمان:

١- **تحريف لفظي**: كمحاولة بعض المبتدعة قراءة قوله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾[(١)]، بنصب لفظ الجلالة[(٢)]، وذلك لنفي صفة الكلام عن الله سبحانه وجعل الكلام لموسى.

ويُروى أن جهميًّا طلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء أن يقرأ: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ بنصب لفظ الجلالة، فقال له: هبني فعلت ذلك، فما تصنع بقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾[(٣)]؟!! فبُهت الجهمي[(٤)].

٢- **تحريف معنوي**: وهو إبقاء اللفظ كما كان وصرف معناه عن المراد به، مثل تأويل الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة كتأويلات الأشاعرة الذين ساروا في تأويلاتهم عبر طريقين:

الأول: تأويل الصفات التي ينفونها بصفةٍ يثبتونها، كتأويل الرضا بالإرادة.

الثاني: تأويل الصفات التي ينفونها ببعض المخلوقات من النعم أو العقوبات، كتأويل الرضا بالثواب أو الجنة، وتأويل الغضب بالعقاب أو النار، وفوق ذلك غلوُّ تحريف الجهمية الذي قادها إلى التعطيل الكلي، وأشد منه كفرًا تحريفات الرافضة والباطنية وغلاة الصوفية[(٥)].

تقسيم آخر: وبعضهم يقسم التحريف إلى أقسام ثلاثة:

١- تحريف لفظي لا يتغير معه المعنى، مثل قراءة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[(٦)] بفتح الدال، والغالب أن هذا يقع من جاهل؛ إذ لا أثر له.

---

(١) سورة النسـاء آية ١٦٤.

(٢) رأيت بعضهم يمثل لهذا النوع من التحريف اللفظي بالاستيلاء، والحقيقة أن هذا تحريف معنوي لا لفظي لأنه تأويل لمعنى الاستواء وليس تحريفًا للفظه.

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٤) «التنبيهات السنية» ص٢٢. وانظر: «الصواعق المرسلة» ١/٢١٨.

(٥) انظر في أنواع التأويل: «الصواعق المرسلة» ١/٢١٥.

(٦) سورة الفاتحة آية رقم ١.

٢- تحريف لفظي يتغير معه المعنى، كما مرَّ.

٣- تحريف معنوي، كما سبق.

وفيه تقسيم ثالث: وهو أن التحريف قسمان:

١- **لفظي**: وهو أربعة أنواع؛ لأنه إما بزيادة، أو نقصان، أو بتغيير حركة إعرابية، وإما غير إعرابية، فهذه أنواع أربعة، قاله ابن القيم[(١)].

٢- **معنوي**: كما سبق.

هل وقع التحريف في النصوص؟

لم يتمكن الجهمية والرافضة من تحريف ألفاظ القرآن، وإن حاول الروافض ذلك[(٢)].

وأما تحريف المعنى فهذا الذي جالوا فيه وصالوا وتوسعوا وأسموه تأويلًا، وهو اصطلاح فاسد لم يعهد استعماله في اللغة بهذا المعنى، وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى آخر، لكنهم سموه تأويلًا ليُقبل، وقلَّ من يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل؛ إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة تأويلًا، وإن لم يكن ثمة قرينة توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فإذا سموه تأويلًا قُبل وراج على من لم يهتد إلى الفرق بينهما[(٣)].

وليُعلم أن التأويل الذي ليس عليه دليل هو تحريف وليس بتأويل، بل حسب تعبير الإمام الشنقيطي يسمى لعبًا؛ لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾[(٤)]. قالوا: عائشة، بل فسروا آيات الكفر والكافرين بخيار صحابة رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق» ٢/١٤٧.

(٢) ولكن ارتدت محاولتهم عليهم والتي أصبحت فضيحة كبرى من فضائحهم يستترون عليها بشتى الوسائل، وقد كشفهم أحد شيوخهم المتأخرين حيث جمع أخبارهم في ذلك في كتاب سماه: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كلام رب الأرباب)، ويُعد هذا الكتاب العار الأكبر عليهم كما يقول الشيخ موسى جار الله، آخر شيوخ الإسلام في روسيا، ولذا صرح بعض أصحابه بالندم على تأليفه، فقال: «ليته ما ألفه، وليته حين ألفه ما طبعه، وليته حين طبعه ما نشره»، وراح بعضهم يتستر على هذه الفضيحة ويدعي – على عادتهم في الكذب الصريح – أن فصل الخطاب موضوعه الدفاع عن القرآن لكنه أخطأ في العنوان!!! انظر للتفصيل والوقوف على نصوصهم بحروفها: «أصول مذهب الشيعة» ١/٢٠٠ وما بعدها، ٣/٩٩٢ وما بعدها.

(٣) انظر: «مختصر الصواعق» ٢/١٤٧، «شرح الطحاوية» ١/١٣.

(٤) سورة البقرة آية ٦٧.

وبلغت بهم الحال أن قالوا: كل ما ورد من لفظ الشيطان في القرآن فالمراد به عمر[١]. كما فسروا أصول الإيمان وأركان الإسلام وفق مذهبهم الباطني[٢].

وأمثلة وأنواع ووقائع هذا اللون من التحريف غير محصورة ولا متناهية، بل هي متزايدة نامية بحسب أوهام المتأولين ووساوس الشياطين، وإن رابك من هذا شيء فانظر كتب المقالات والآراء والديانات تجد كل ما يخطر على بالك وتأمل ما وقع على امتداد التاريخ وفي الواقع من ضلال وفساد وأحداث وفتن، فستنتهي من النظر إلى ما قرره ابن القيم من أن التأويل الفاسد أصل كل فساد وفتنة، وأساس كل ضلال وبدعة.

ما يقبل التأويل وما لا يقبل:

لا شك أن من الكلام ما يقبل التأويل ومنه ما لا يقبل ذلك.

إن الكلام ثلاثة أنواع: منه ما هو نص في المراد، ومنه ما هو ظاهر في المراد، ومنه ما هو مجمل محتاج إلى بيان[٣].

فالأول: يستحيل دخول التأويل فيه؛ إذ تأويله كذب ظاهر على المتكلم، وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها - خصوصًا آيات الصفات والتوحيد[٤]-، ولهذا لم يتأول الصحابة آيات الصفات وأحاديثها ولم يختلفوا في تفسيرها[٥].

---

(١) انظر هذا القول بحروفه في «أصول مذهب الشيعة» ١/١٦٩.

(٢) انظر نصوصهم في ذلك في «أصول مذهب الشيعة» ١/١٥٠- ١٥٩ وما بعدها.

(٣) تقرر في علم أصول الفقه أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى (نصًّا)، كقوله تعالى: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: ١٩٦]، وإذا كان محتملًا لمعنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين: إما أن يكون أحد المعنيين أرجحَ في المراد من الآخر، فالراجح يسمى (الظاهر)، ويجب حمل الكلام عليه دون المرجوح إلا لدليل صارف عنه، كقولك مثلًا: (رأيت أسدًا)، فهذا القول ظاهر في الحيوان المفترس؛ لأنه اسمه الذي وضع له، ومحتملٌ احتمالًا مرجوحًا في الرجل الشجاع فيجب حمله على الظاهر إلا إذا وجدت قرينة صارفة لذلك. وإن كان الاحتمال متساويًا بين المعنيين فهذا الذي يسمى في الاصطلاح (المجمل)، كقولك: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فهذا لفظ مجمل؛ إذ يحتمل أن يكون المراد عينه الباصرة عوروها، أو عينه الجارية غوروها، أو عين ذهبِه وفضته سرقوها، فهذا مجمل، وحكم المجمل أن يتوقف عنه حتى يرد الدليل المبين. «منهج ودراسات» للشنقيطي ص٢٢، وانظر: «الصواعق المرسلة» ٢/٦٧٠.

(٤) «مختصر الصواعق» ١/٤٤.

(٥) «مجموع الفتاوى» ٦/٣٩٤.

والثاني: يُنظر في وروده؛ فإن اطَّردَ استعماله على وجه واحد استحال تأويله بما يخالف ظاهره؛ لأن التأويل إنما يكون لموضع جاء خارجًا عن نظائره متفردًا عنها حتى يرد إلى نظائره[(١)]، مثال ذلك: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[(٢)] ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**﴾[(٣)] جاء لفظ (استوى) في جميع موارده من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ فتأويله بـ(استولى) باطل، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ (استولى) ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ (استوى) فهذا كان يصح تأويله بـ(استولى)، فتفطن لهذا الموضع واجعله مما يمتنع من كلام المتكلم ويجوز تأويله، ونظير ذلك: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا...»[(٤)] في نحو ثلاثين حديثًا كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب تعالى، ولم يجئ في موضع واحد بقوله: «ينزل ملك ربنا» حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه.

والثالث: هو المجمل الذي أحيل بيانه على خطاب آخر، فهذا أيضا لا يجوز تأويله إلا بالخطاب الذي بينه، وقد يكون بيانه منفصلًا عنه[(٥)].

حكم التحريف:

التحريف محرم؛ لأنه تغيير لكلام الله تعالى، وقول على الله بلا علم، وقد ذمَّ الله الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بني إسرائيل وغيرهم، والمحرفون فيهم شبه من اليهود والنصارى.

وقد يصل التحريف إلى حد الكفر، ولهذا قال شارح الطحاوية: «وكل من التحريف والانحراف على مراتب: فقد يكون كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ»[(٦)].

أما وجه ذلك؛ فإن كان هذا التأويل باعثه الهوى والتعصب وليس عليه دليل فهو كفر؛ لأن حقيقته التكذيب، وإن كان باعثه الهوى والتعصب وله وجه في لغة العرب فهو فسق، إلا إذا تضمن عيبًا في حق

---

(١) ولذلك حكى غير واحد من العلماء إجماع السلف على ترك (التأويل) بالمعنى الاصطلاحي الذي أحدثه المتأخرون – وهو صرف اللفظ عن ظاهره – وممن حكى الإجماع: البغوي وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية. (انظر: مدارج السالكين ٦٣/٢).

(٢) سـورة طـه آية ٥.

(٣) سورة الفرقان آية ٥٩.

(٤) البخاري رقم ١١٤، ومسلم رقم ١٦٨.

(٥) «مختصر الصواعق» ٤٤/١ وما بعدها، وانظر: «الصواعق المرسلة» ٦٧٠/٢-٦٧٢، «بدائع الفوائد» ١٥/١.

(٦) «شرح الطحاوية» ١٣/١.

الله فهو كفر، وإن صدر هذا التحريف عن اجتهاد وحسن نية وله وجه في اللغة العربية فهو خطأ؛ لأن الله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، أفاد ذلك شيخنا محمد بن عثيمين -رحمه الله-[١].

ولذا جاء الحديث: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[٢].

فجَعل له أجرًا مع خطئه، وكان خطؤه مغفورًا له؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

نفي التحريف أوْلى من نفي التأويل:

إن التعبير بنفي التحريف أوْلى من التعبير بنفي التأويل، وذلكم لوجهين:

الأول: لأن هذا هو الذي ورد بذمِّه القرآن، قال تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾[٣]. فالتعبير القرآني أوْلى من غيره؛ لأنه أدل على المعنى المقصود.

الثاني: إن التأويل منه ما هو حق -وهو ما وافق الكتاب والسنة-، ومنه ما هو باطل -وهو ما خالفهما- فلا يجوز نفيه، ولا إثباته مطلقًا، بخلاف التحريف فهو باطل أصلًا. وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذين الوجهين، فقال: «إني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف؛ لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه؛ وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة، فنفيت ما ذمه الله من التحريف، ولم أذكر فيها لفظ التأويل؛ لأنه لفظ له عدة معان؛ فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف؛ لأن من المعاني التي قد تسمى تأويلًا ما هو صحيح منقول عن بعض السلف؛ فلم أنفِ ما تقوم الحجة على صحته فإذا ما قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف»[٤].

ثانيًا: الـتـعـطـيـل:

تعريف التعطيل:

---

(١) انظر: «شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد» ص٢١ (ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين).

(٢) البخاري برقم ٧٣٥٢.

(٣) سورة النساء آية ٤٦.

(٤) «مجموع الفتاوى» ٣/١٦٥-١٦٦.

التعطيل في اللغة: مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾، أي تركها أهلها وأهملوا ورودها ومنه (جيد عاطل) أي خال من الزينة[1].

وقال امرؤ القيس:

وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصَّـتـه ولا بمعطَّل

والتعطيل اصطلاحًا: هو تخلية الله سبحانه من صفاته؛ أي نفي صفاته سبحانه وإنكار قيامها بذاته جل شأنه[2].

أقسام التعطيل :

من أهل العلم من قسم التعطيل إلى قسمين، ومنهم من قسمه إلى ثلاثة أقسام، ومنهم من قسمه إلى أربعة، وكلها حقٌّ، ولا مشاحَّة في التقسيم.

التقسيم الأول: التعطيل قسمان:

١- كلي، كما فعل نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة.
٢- جزئي، كما فعل متأخرو الأشاعرة الذين يثبتون سبع صفات فقط، ويؤلون الباقي.

التقسيم الثاني: التعطيل أربعة أقسام:

١- إنكار الأسماء والصفات كمذهب جهم.
٢- إنكار الصفات وإثبات الأسماء في الجملة، كطريقة أهل الاعتزال.
٣- إثبات الأسماء وبعض الصفات، ونفي بعضها، كمذهب الكُلَّابية والأشاعرة والماتريدية.
٤- وصف الله بسلب النقيضين، وهو مذهب الباطنية والملاحدة الذين قالوا: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت[3].

وهذا التقسيم والذي قبله خاص بتعطيل الأسماء والصفات.

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة (عطل) ١١/٤٥٣، «الصحاح» ٥/١٧٦٧.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» ١/١٦٩، «التنبيهات السنية» ص٢٣.

(٣) راجع رد ابن تيمية على هذه الطوائف في رسالته النفيسة «التدمرية».

التقسيم الثالث: ينظر الإمام ابن القيم إلى لفظ التعطيل نظرة شمولية لا تقتصر على توحيد الأسماء والصفات، بل تشمل التعطيل في أنواع التوحيد كلها، فذكر أن التعطيل ثلاثة أقسام:

الأول: تعطيل المصنوع من صانعه، كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات وأنها تتصرف بطبيعتها، وكتعطيل الدهرية القائلين: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾[١]، (ومثله تعطيل الشيوعيين القائلين: لا إله والحياة مادة)[٢].

الثاني: تعطيل الصانع من كماله المقدس، بتعطيله من أسمائه وصفاته، كتعطيل الجهمية.

الثالث: تعطيل حق معاملته بترك عبادته كفعل الكافرين، أو عبادة غيره معه كفعل المشركين[٣].

ومن هذا التقسيم يتضح أن القسم الأول يدخل في الربوبية، والثاني يدخل في الأسماء والصفات، والثالث يدخل في الأُلوهية.

حكم التعطيل:

أما حكم التعطيل فقد يكون ناقضًا لأصل التوحيد أو لكماله، أعني أنه قد يكون كفرًا، وقد يكون دون ذلك، فإن كان تكذيبًا فهو كفر، وإن كان تأويلًا فيجري فيه حكم التأويل الذي سبقت الإشارة إليه في حكم التحريف، ومن التعطيل ما هو شر من الشرك، قال ابن القيم -رحمه الله-: «والتعطيل شرٌّ من الشرك؛ فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الألوهية ... والمشرك مقرٌّ بالله، لكن عبد معه غيره، فهو خير من المعطل للذات والصفات»[٤].

ويحكم نعيم بن حماد بالكفر على المعطلة، فيقول: «من شبَّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس في ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهٌ»[٥].

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٤.

(٢) ما بين القوسين تعليق وزيادة على كلام ابن القيم.

(٣) «التنبيهات السنية» ص ٢٣.

(٤) «التنبيهات السنية» ص٢٣. وانظر: «النونية» لابن القيم مع شرحها «توضيح المقاصد» ٢/٤٥١-٤٥٢.

(٥) رواه الذهبي في «العلو» ص ١١٦، وانظر: «شرح السنة» للالكائي ٥٣٢/٣، «شرح الطحاوية» ٨٥/١.

وهذا الحكم قد يعم من جحد بتأويل كما يعم من جحد بتكذيب، ولا خلاف أن المكذب باسم من أسماء الله أو بصفة من صفاته كافر، قال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي**﴾[١]، ولذا كفَّر الأئمة من نفى كلام الله سبحانه على جهة التكذيب.

قال ابن القيم في النونية:

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في   عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ   ـهمُ بل حكاه قبله الـطبراني[٢]

«أي أن القائلين بخلق القرآن كفَّرهم خمسمائة عالم من علماء المسلمين»[٣].لكن التأويل يجري في حكمه التفصيل السابق.

وقد تولى أئمة السنة الرد على المعطلة، وقد نقض أسسهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النفيس (بيان تلبيس الجهمية) المسمى بـ(نقض التأسيس) بما لا مزيد عليه، ومن قبله نقدها أئمة السنة كالدارمي، والبخاري، والخلال، وغيرهم، ومن بعده أئمة الدعوة النجدية، ومن علماء العصر ابن باز وابن عثيمين والفوزان وغيرهم.

تاريخ مقالة التعطيل:

أول من قال بهذا الضلال هو الجعد بن درهم[٤]. قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: «أول من أتى بخلق القرآن جعد بن درهم»[٥]، فهو أول من قال بمبدأ التعطيل من هذه الأمة ثم تلقى ذلك عنه الجهم بن صفوان[١].

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٠.

(٢) «النونية» لابن القيم مع شرح ابن عيسى المسمى «توضيح المقاصد» ٢٩٠/١، ط. المكتب الإسلامي.

(٣) «توضيح المقاصد» ٢٩٦/١.

(٤) قال ابن حجر: «مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر والقصة مشهورة»، وكان مقتله سنة ١١٨هـ. وانظر في حاله: «ميزان الاعتدال» ٣٩٩/١، «لسان الميزان» ١٠٥/٢، «سرح العيون» لابن نباتة ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ص ٢٨٢، ويلاحظ أن النص المذكور له تتمة هي: «وقاله (أي خلق القرآن) في سنة نيف وعشرين ومائة»، ولم يتعقب المحقق هذا النص بشيء!! رغم أن الجعد قتل نحو سنة ١١٨هـ.

ويذكر بعض الأئمة أن أصول مقالة التعطيل ترجع إلى مصادر أجنبية، فقد ذكر ابن الأثير وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما أن الجعد استمد مقالة التعطيل لكلام الله سبحانه والقول بخلق القرآن من أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وكان يقول بخلق القرآن، وكان يقول بخلق القرآن، وكان طالوت زنديقًا، وهو أول من صنف لهم في ذلك، ثم أظهره الجعد بن درهم(٢).

ثم وقفت على نصٍّ مهم عند الخطيب البغدادي يكشف فيه أن والد بشر المريسي -وهو أحد كبار القائلين بخلق القرآن من المعتزلة- كان يهوديًّا(٣).

وتأمل كم أحدثت هذه الفتنة -فتنة خلق القرآن- من مصائب، وكم نال الأئمة بسببها من محن، وعلى رأسهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل.

ويشير شيخ الإسلام ابن تيمية إلى مصادر أجنبية أخرى ترجع إليها مقالة التعطيل؛ فيذكر أن الجعد بن درهم كان من أهل حرَّان، وكان فيهم من بقايا الصابئين والفلاسفة خصوم ابراهيم -عليه السلام-، فلهذا أنكر تكليم موسى وخلة إبراهيم موافقة لفرعون والنمرود بناء على أصل هؤلاء النفاة، وهو أن الرب تعالى لا يقوم به كلام ولا محبة لغيره، فقتله المسلمون، ثم انتشرت مقالته فيمن ضل من هذا الوجه، وأخذ بهذه المقالة فرق الجهمية بمختلف درجاتها.

هذا، ونقْض مقالاتهم كثير في كلام التابعين وتابعيهم والأئمة من بعدهم(٤).

ثالثًا: التكييف:

تعريفه:

---

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» لابن تيمية ١٢٧/١، «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» ٢٠/٥، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» ٢٤٤/٥.

(٢) انظر: «الكامل» لابن الأثير ٢٩٤/٥، «الحموية» لابن تيمية (ضمن الفتاوى) ٢٠/٥-٢١، «سرح العيون» لابن نباتة ص ٢٩٣، «لوامع الأنوار» للسفاريني ٢٣/١.

(٣) «تاريخ بغداد» ٦١/٧.

(٤) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد، و«الرد على الجهمية» للدارمي، وكتاب «رد عثمان بن سعيد على المريسي العنيد»، و«الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة» لابن قتيبة، و«الرد على الجهمية» لابن منده، وما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والسفاريني وعلماء الدعوة وغيرهم.

التكييف لغة: تعيين كُنْه الصفة، وفي المصباح: «كيفية الشيء حاله وصفته»[١]، وهي اسم لما يجاب به عن السؤال بكيف، أخذ من (كيف) بإلحاق ياء النسبة وتاء النقل من الوصفية إلى الاسمية بها كالكمية من (كمْ)، وهي كلمة مولدة، والمراد بها: معرفة الحال؛ لأن كيف سؤال عن الحال[٢].

وشرعًا: حكاية كيفية الصفة، كقول القائل: كيفية يد الله أو نزوله إلى السماء الدنيا كذا وكذا[٣].

وعرفه بعضهم بقوله: «أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا، أو يسأل عنها بكيف»[٤]. فعدَّ السؤال من قبيل التكييف؛ وذلك مبني على أن السؤال نابعٌ من تصور واعتقاد تكييف؛ ولكنه -أي السائل- يسأل للتعيين.

ويمكن أن يُقال في تعريفه: إن التكييف هو أن اعتقاد أن صفات الله على كيفية كذا، أو يُسأل عنها بكيف.

طريقة أهل السُّنة في جواب من يسأل عن كيفية صفةٍ من صفات الله:

لهم في ذلك جوابان مشهوران:

الجواب الأول: جواب الإمام مالك وشيخه ربيعة وغيرهما[٥]؛ عن جعفر بن عبدالله قال: «جاء رجل إلى مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبدالله ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكًا وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرُّحَضاء[٦] يعني العَرَق، قال: وأطرق القوم وجعلوا

---

(١) «المصباح المنير» (٢/ ٥٤٦).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٩/ ٣١٢)، «الكليات» (ص: ٧٥٢)، «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص: ٢٨٦).

(٣) «فتح رب البرية» ص ٢٢ (ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ج٤).

(٤) «شرح العقيدة الواسطية» محمد خليل هراس ص ١٩.

(٥) هذا الجواب مأثور عن مالك (الأسماء والصفات للبيهقي ص ٥١٥) بإسناد جيد، كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٠٧/١٣)، وورد عن ربيعة شيخ مالك (انظر: شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣٩٨/٣، والأسماء والصفات للبيهقي ص ٥١٦) . وروي عن أم سلمة موقوفًا ومرفوعًا، ولكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس إسناده مما يعتمد عليه» (الفتاوى ٣٦٥/٥). وقال الألباني عن المرفوع: «لا يصح» . ثم قال: «والصواب عن مالك أو أم سلمة، والأول أشهر» (تخريج شرح الطحاوية ص ٢٨١).

(٦) الرُّحَضَاء -بضم الراء وفتح الحاء والضاد-، وهو العَرَق الكثير الذي يغسل الجلد لكثرته ولا يكون إلا من شكوى، جاء في لسان العرب مادة رحض (١٥٤/٧) ما يلي: «يقال: رحض الرجل رَحْضا: عرق حتى كأنه غسل جلده. والرُّحضاء: العرق». وحكى الفارسي عن أبي زيد: رُحِضَ رحضًا، فهو مرحوض إذا عرق فكثر عرقه على جبينه في رقاده أو يقظته، ولا يكون إلا من شكوى، وفي حديث نزول الوحي: (فمسح عنه الرحضاء)، وهو عرق يغسل الجلد بكثرته، وفي تفسير غريب الحديث (الرُحضاء) -بضم الراء وفتح الحاء والضاء المعجمة مع المد-: هو عرق الحمى (تفسير غريب الحديث ص ١٠٠) .

ينظرون ما يأتي منه فيه، قال: فسرِّي عن مالك فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالًّا»، وأُمر به فأُخرج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟ قيل له – كما قال ربيعة ومالك وغيرهما –: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عمَّا لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه»[(١)].

وقوله: «الاستواء معلوم» أي في لغة العرب، وقوله: «والكيف مجهول» أي كيفية استوائه سبحانه لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه، وقوله: «والسؤال عنه بدعة» أي السؤال عن الكيف بدعة؛ لأن السلف لم يسألوا عنه، وقوله: «الإيمان به واجب» لتكاثر الأدلة من الكتاب والسُّنة في إثبات ذلك.

وإجابة الإمام مالك –رحمه الله– إجابة كافية شافية في الرد على من سأله عن كيفية أي صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، فإذا سئلت عن كيفية نزوله سبحانه أو مجيئه أو غضبه ... إلخ فقل: النزول معلوم، والكيف مجهول... إلخ، والغضب معلوم، والكيف مجهول... إلخ.

الجواب الثاني: وهو مبني على أصل شريف، وهو أن القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فكما أن ذاته لا تماثل الذوات فكذلك صفاته سبحانه لا تماثل صفات سائر الذوات.

فإذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟

قيل له: كيف هو؟

فإذا قال: أنا لا أعلم كيفية ذاته.

قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية نزوله وبصره وتكليمه واستوائه، وأنت لا تعلم كيفية ذاته، وإذا كنت تقر بأن له ذاتًا حقيقية ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره

---

(١) «التدمرية» ص ٤٣–٤٤. وهذا التعليل فيه نظر؛ لأنه يقتضي أن يكون السؤال عنه تكلفًا ومحاولة للمحال، ولكن نقول: السؤال عنه بدعة؛ لأنه لم يسأل عنه الصحابة ولا السلف الصالح (من تقرير شيخنا محمد بن عثيمين –رحمه الله–).

وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم[١].

حكم التكييف:

التكييف حرام؛ لأنه من القول على الله بلا علم، لأن الله أخبرنا عن صفاته ولم يخبرنا عن كيفيتها، أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف استوى، وهكذا.

والقول على الله بلا علم حرام، قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**[٢].

فالآية تدل على أن القول على الله بلا علم من أعظم المحرمات؛ فإنه بدأ بأسهلها وختم بأشدها وأعظمها تحريمًا، وهو القول على الله بلا علم، وتواتر عن النبي ﷺ: «من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار»[٣].

قال ابن القيم –رحمه الله–: «فرتب المحرمات (يعني في الآية المتقدمة) أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش[٤]، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[٥].

---

(١) انظر: «التدمرية» ص ٤٤، وفي موضع آخر عرض شيخ الإسلام هذا الجواب ونسبه لغيره فقال: «وما أحسن ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوى أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا أو كيف يداه ونحو ذلك؟ فقل له: كيف هو في ذاته؟ فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو وكنه الباري تعالى غير معلوم للبشر. فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف؛ فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك، بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس أنه قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، وقد أخبر الله تعالى أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، وأخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك فما ظنك بالخالق سبحانه وتعالى، وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها؛ أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى؟!» (الفتاوى ٥/١١٤–١١٥).

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣.

(٣) صحيح مسلم رقم ٣.

(٤) الفواحش من الكبائر، لكن وصفها بالأسهل بالنسبة لما هو أكبر منها.

(٥) «أعلام الموقعين» ١/٤٢–٤٣، ط. الكردي، مطبعة النيل بمصر.

رابعًا: الـتـمـثـيــل:

تعريفه:

التمثيل لغة: هو إثبات مثيل للشيء أو هو التشبيه[1]، قال في اللسان: «يقال: هذا مِثْلهُ ومَثَله، كما يقال: شِبْهه وشَبَهُه بمعنًى»[2].

واصطلاحًا: هو إثبات مثيل لله عز وجل في ذاته أو صفاته[3].

أما إثبات مثيل لله عز وجل في ذاته فإن شيخ الإسلام ابن تيمية –وهو من أعلم الناس بالفرق والمقالات– يذكر أنه لم تذهب طائفة إلى إثبات خالقين متماثلين. إذن إثبات مثيل في الذات لم يقل به أحد.

وأما إثبات مثيل له في صفاته؛ فإن أول من قال بذلك –كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية– هو هشام بن الحكم، وهو من الرافضة، وتنسب له فرقة تسمى (الهشامية).

أقسامه:

القسم الأول: تشبيه المخلوق بالخالق، وهو إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق من الصفات أو الأفعال أو الحقوق.

فالأول: الصفات، كحال غلاة الصوفية مع من يسمونهم الأولياء وحال الرافضة مع أئمتهم.

والثاني: كفعل من أشرك في الربوبية، كالمانوية والثنوية والفلاسفة.

والثالث:كاعتقاد المشركين بأصنامهم حيث عبدوها مع الله تعالى.

---

(١) وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قد يفرق بين التشبيه والتمثيل بأن المماثلة تقتضي المساواة من كل وجه، بخلاف المشابهة، وقد يعبر بأحدهما عن الآخر (انظر: التدمرية ص ١١٧).

(٢) «لسان العرب» (مادة: مثل) ٦١٠/١١.

(٣) وإن شئت التعميم (كتعريف التعطيل) فقل: إثبات مثيل لله سبحانه في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته. والله أعلم.

القسم الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، كاعتقاد الهشامية أتباع هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، واليونسية أتباع يونس بن عبدالرحمن القمي الذين وصفوا الله سبحانه بصفات المخلوقين –تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا–.

حكم التمثيل:

التمثيل كفر؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[١]، قال نعيم بن حماد –كما سلف–: «من شبه الله بخلقه فقد كفر».

وقال إسحق بن راهويه: «من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم»[٢].

والعقل لا يمكن أن يفرض لله مثيلًا؛ لظهور التباين بين الخالق والمخلوق ببداهة العقول، لكن لفظ التشبيه الذي يستعمل بمعنى التمثيل صار في كلام الناس لفظًا مجملًا، يراد به المعنى الحق وهو ما نفاه القرآن بقوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾، ويراد به باطل وهو ما عناه الجهمية وأضرابهم، فالمثبت للأسماء والصفات هو عند الجهمي ممثِّلٌ، والمثبت للصفات هو عند المعتزلي ممثل، والمثبت لجميع ما أثبته الله ورسوله في كتابه وسنة رسوله من الأسماء والصفات هو عند الأشاعرة والكُلَّابية والماتريدية ممثِّل، ولذلك لابد من التفصيل والبيان عند الحكم.

نفي التمثيل أوْلى من نفي التشبيه:

وذلك لثلاثة أوجه:

الأول: أن التمثيل هو الذي ورد بنفيه القرآن، «والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية هو سبيل أهل السنة والجماعة»[٣].

---

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) «شرح اعتقاد أهل السنة» للالكائي ٥٣٢/٣، «شرح الطحاوية» ٨٥/١.

(٣) «شرح الطحاوية» ٧٠/١-٧١.

قال شيخ الإسلام في تقرير ذلك: «ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه؛ لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه؛ حيث قال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[١]، وقال: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾[٢]، وكان أحبَّ إليَّ من لفظٍ ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ»[٣].

الثاني: أن نفي التشبيه مطلقًا يؤدي إلى التعطيل، ذلك أنه ما من موجودين إلا وبينهما قدر مشترك يتشابهان فيه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعلم أيضًا بالعقل أن كل موجودَيْن قائمين بأنفسهما فلابدَّ بينهما من قدر مشترك، كاتفاقهما في مسمى الوجود والقيام بالنفس والذات، ونحو ذلك، وأن نفي ذلك يقتضي التعطيل المحض»[٤].

الثالث: أن لفظ التشبيه استعمل فيما بعد في غير ما وضع له حتى صار من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى بيان، فقد ينفى التشبيه ويراد به نفي الحق الذي وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ كما بينا، لذا فإن استعمال اللفظ الشرعي وهو التمثيل أولى؛ لأنه أدل على المعنى، ولأن طريقة أهل السنة التعبير بالألفاظ الشرعية البينة دون الألفاظ المحدثة المجملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم إن الجهمية من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفي الصفات في مسمى التوحيد، فصار من قال: إن لله علمًا أو قدرة، أو إنه يُرى في الآخرة، أو إن القرآن كلام الله منزَّل غير مخلوق، يقولون: إنه مشبِّه ليس بموحِّد»[٥].

تاريخ مقالة التمثيل:

اشتهرت ضلالة التجسيم بين اليهود، وفي كتاب الله سبحانه أدلة على تلبُّس اليهود بهذا الضلال، قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾[٦].

وقال سبحانه : ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**﴾[١].

---

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) سورة مريم آية ٦٥.

(٣) «مجموع الفتاوى» ٣/٢٦٦.

(٤) «الفتاوى» ٣/٩٩.

(٥) «الفتاوى» ٣/٩٩.

(٦) سورة المائدة آية ٦٤.

وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[٢].

وأمثال هذه المقالات التي تواطأت عليها يهود، فشبهت الخالق بالمخلوق وتاهت في بيداء من الضلال مهلكة، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وفي التوراة المحرفة المتداولة اليوم بين اليهود أمثلة عديدة لفشو وصف الله سبحانه بصفات المخلوقين بينهم، ومن ذلك قولهم في التوراة: «وسمعا (يعني ادم وحواء) صوت الرب والإله ماشيًا»[٣].

وفي التوراة: «ثم صعد موسى وهارون وسبعون رجلًا من شيوخ بني إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت قدميه كصنعة بلاط .. وكذات السماء صفاء»[٤].

وهناك أمثلته كثيرة على هذا المنوال وأعظم[٥].

وفي تلمود[٦] اليهود المقدس عندهم نصوص أبشع وأشنع، تقشعر من هولها جلود المؤمنين، فلقد جاءوا شيئًا إدًّا تخر منه الجبال هدًّا، فمن إفكهم أنهم يقولون:

- «إن النهار اثنتا عشرة ساعة في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية منها يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك»[٧].
- «إنه لا شغل لله في الليل غير تعلمه التلمود مع الملائكة»[٨].

---

(١) سورة التوبة آية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٨١. وانظر سبب نزول هذه الآية في: «تفسير الطبري» (٤٤١/٧)، و«تفسير ابن كثير» (٤٥٥/١-٤٥٦)، و«الدر المنثور» (١٠٥/٢)، و«سيرة ابن هشام» (٢٠٧/٢)، و«أسباب نزول القرآن» للواحدي (ص ١٢٨-١٢٩).

(٣) سفر التكوين، الفصل الثالث، فقرة ٨.

(٤) سفر الخروج، الفصل الرابع والعشرون، فقرة ٩-١٠-١١.

(٥) للتعرف على مزيد من هذه الافتراءات، ينظر: سفر التكوين الفصل ٣٢، فقرة ٢، وسفر التثنية، الفصل ٣٤، فقرة ١٠، وسفر القضاة، الفصل ٦ فقرة ١١، وسفر الخروج ، الفصل ٢٤، فقرة ٤.

(٦) كلمة «التلمود» معناها (كتاب تعليم ديانة وآداب اليهود) ويعد اليهود التلمود كتابًا منزلا مثل التوراة، مع أنه يحوي أقوال الحاخامات لكنهم يقولون: من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى. (انظر: الكنز المرصود ص ٤٧-٥٠).

(٧) «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ص٥٥.

(٨) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

- «اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل، فصار يبكي ويمضي ثلاثة أجزاء الليي يزأر كالأسد قائلًا: تبًّا لي؛ لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي، وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان»(١).
- «إن الله إذا حلف يمينًا غير قانونية احتاج إلى من يحلله من يمينه» (٢).

هذه نصوص من التلمود (الكتاب المقدس عند اليهود) نقلناها من (الكنز المرصود في قواعد التلمود) وهو من أفضل المراجع التي كتبت عن التلمود بالعربية.

وتبين من خلال النصوص السابقة أن ضلالة التمثيل، قد تبناها اليهود وأشاعوها وملأت فضائحها كتبهم.

ثم تسرب هذا الكفر والإلحاد إلى بعض الفرق المنتسبة للإسلام، وأول هذه الفرق التي سقطت في هذه الهاوية هم الرافضة.

قال الرَّازي: «اليهود أكثرهم مشبِّهة، وكان بدء ظهور التَّشبيه في الإسلام من الرَّوافض مثل هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي، وأبي جعفر الأحول»(٣).

وهؤلاء الأربعة المذكورون لهم أتباع، فهم أصحاب طوائف منسوبة لأسمائهم.

- فالهشامية: أصحاب هشام بن الحكم.
- واليونسية: أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمي.
- والهشامية: أصحاب هشام بن سالم الجواليقي.
- والشيطانية: أصحاب أبي جعفر الأحول الملقب بشيطان الطاق.

وهذه الفرق الأربع كلها من فرق الروافض، ويعدهم روافض عصرنا في الطليعة من شيوخهم والثقات من نقلة مذهبهم(٤).

شبهاتهم:

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧.

(٣) «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» ص ٩٧.

(٤) انظر: «أصول مذهب الشيعة» ٢/٥٢٨.

لم يصلنا شيء من كتب الممثلة المنتسبة للإسلام -في حدود علمي-، ونقلت كتب الفرق كلماتهم المغرقة في التشبيه والتمثيل، ولم تشر إلى شبهاتهم سوى شبهة عليلة، وهي: دعوى المشبِّه أن ظاهر نصوص الأسماء والصفات يدل على مذهبهم، ولذا قال ابن الجوزي: «وقد وقف أقوام مع الظواهر فحملوها على مقتضى الحس، فقال بعضهم: إن الله جسم تعالى الله عن ذلك[١]، وهذا مذهب هشام بن الحكم»[٢].

ودعوى أن ظاهر النصوص هو ما يليق بالمخلوقين من أعظم الباطل؛ إذ من المحال أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله كفرًا، والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر وضلال[٣]، ومع هذا الاعتقاد الباطل فقد زادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي ﷺ وأكثرها مقتبس من اليهود[٤].

هل للممـثـلـة وجــود الــيــوم؟

يظن بعض الناس أن التمثيل ليس له وجود، وأن فرقه قد اندثرت ولم يبق سوى أهل التعطيل، وغاب عن أصحاب هذا الظن أن وجود الممثلة ظاهر وممتد اليوم في فرق عدة، أما تمثيل الخالق بالمخلوق فهو عند اليهود في كتبها المقدسة -كما مر-.

وهو أيضًا عند فرق أخرى تنتسب إلى الإسلام تتواجد اليوم على ظهر هذه الأرض وهي الفرق القائلة بالحلول ووحدة الوجود من غلاة الصوفية والرافضة وأمثالهم، ولا شك أن القول بهاتين المقالتين، الحلول والاتحاد تجسيم وتمثيل ظاهر.

وأما تمثيل المخلوق بالخالق فهذا موجود عند النصارى في اعتقادهم في المسيح، واليهود في اعتقادهم في عزير، والرافضة في اعتقادهم في أئمتهم الاثني عشر، وعند الصوفية بغلوهم في شيوخهم وأوليائهم.

---

(١) لفظ الجسم من الألفاظ المبتدعة وطريقة أهل السنة في مثل هذه الألفاظ التوقف، فلا ينفون لعدم ورود الدليل النافي، ولا يثبتون لعدم ورود الدليل المثبت، وينكرون على من أنكر أو نفى؛ لأنه قال على الله بلا علم. أما المعنى فيستفصلون عنه؛ فإن أراد القائل حقًّا قبل منه وإن أراد باطلا رد عليه.

(٢) «تلبيس إبليس» ص ٨٦.

(٣) انظر: «التدمرية» ص ٦٩.

(٤) انظر: «الملل والنحل» ١/١٠٦.

نَـــبْــزُ أهل التعطيل لأهل السُّــنة بالمشبهة:

من كيد المبتدعة التلبيس –أي تلبيس الحق بالباطل– فيصفون الحق وأهله بصفات الباطل أو بأسمائه، ويسمون باطلهم بأسماء أو أوصاف الحق، وهذه المكيدة فروعها وصورها لا تحصى.

ومن وقائعها في مبحثنا قولهم: إن أهل السنة مشبهة أو وصفهم بعض أئمة السنة بذلك، ولذا قال شارح الطحاوية مشيرًا إلى هذا التلبيس: «ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظًا مجملًا يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته: {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١]، رد على الممثلة المشبهة {وهو السميع البصير} [الشورى: ١١] رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى في كفرهم.

ويراد به (وهو المعنى الباطل) أنه لا يثبت لله شيء من الصفات، فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات!»[١].

ولذا فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا ويسمي المثبت لها مشبهًا[٢]، على تعدد فرق المعطلة النفاة وتفاوت درجات تعطيلهم حتى بات هذا المسلك سمة أهل التعطيل، «ولذلك قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة المشبهة»[٣].

قال ابن أبي حاتم الرازي –رحمه الله تعالى–: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون إبطال الآثار، وعلامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهة»[٤]، وقد بلغ بهم الأمر إلى أن عدوا إثبات الصفات شركًا، ونفيها توحيدًا[٥].

خامسًا: الإلــحــاد:

---

(١) «شرح الطحاوية» (١/ ٥٧).

(٢) انظر: المصدر السابق: ٨٦/١.

(٣) المصدر السابق: الموضع نفسه.

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ١/ ١٧٩.

(٥) انظر: «شرح الطحاوية» ٢٤/١-٢٥.

اللفظ الجامع لأنواع المخالفات في توحيد الأسماء والصفات هو الإلحاد، ولذا ختم به ابن القيم –رحمه الله– القول في المسائل العشرين في باب الاسماء والصفات التي ساقها في (بدائع الفوائد) وقال بأن معرفته هي الجامعة للوجوه المتقدمة كلها ... وأنه لا بد من معرفة الإلحاد في أسمائه ليحذر من الوقوع فيه[1]، وإليكم تفصيل القول فيه بإذن الله تعالى.

تعريفه:

الإلحاد لغة: الميل والعدول عن الشيء، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل[2].

وفي الاصطلاح: هو العدول بأسماء الله وصفاته وآياته عن الحق الثابت[3]، فتبين لنا من خلال التعريف أن الإلحاد يقعُ في أمرين:

الأول: في الأسماء والصفات.

الثاني: في الآيـــات.

أما الأول: الإلحاد في الأسماء والصفات، فأنواعه خمسة:

١– تسميه الأصنام أو غيرها بأسماء الله سبحانه، ومن ذلك تسمية المشركين اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، ومنه إلحاد السبئية والبيانية والمختارة وغيرها في تسمية أئمتهم بالإله، وكذلك الدروز والأغاخانية والنصيرية وأمثالهم في عصرنا الذين أعطوا أئمتهم أسماء وأوصاف الخالق جل شأنه.

٢– تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو العلة الفاعلة بالطبع، ونحو ذلك، بل تسميته سبحانه بما لم يسم به نفسه، وإن كان من الأسماء المستحسنة في العقول فإنه يعد من الإلحاد؛ لأن أسماء الله سبحانه توقيفية[1].

---

(١) انظر: «لسان العرب» (مادة: لحد) ٣٨٨/٣.

(٢) «بدائع الفوائد» ١٦٩/١.

(٣) الموضوع نفسه من المصدر السابق.

٣- وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخباث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته، بل وصف الله سبحانه بما لم يصف به نفسه ولو ساغ في العقول فإنه إلحاد؛ لأنه لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو بما وصفه به رسوله ﷺ.

٤- إلحاد التعطيل، كجحد الأسماء والصفات كما هو حال الجهمية، أو إثبات أسماء في الجملة وتعطيلها عن معانيها وجحد حقائقها كفعل المعتزلة الذين يطلقون اسم الحي والسميع والبصير، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن أولئك أعطوه أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه، وأهل التعطيل من الجهمية وأفراخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

٥- إلحاد التمثيل، كتشبيه صفاته سبحانه بصفات خلقه -كما مرَّ-، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله رسوله وورثته القائمين بسنته من ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التمثيل، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كان يعبد صنمًا، أو عطل كأنه لا يعبد إلا عدمًا.

الثاني: الإلحاد في الآيات:

الآيات جمع آية، وهي في لغة العلامة.

وشرعًا: كل ما يدل على ذات الله وأسمائه وصفاته فهو آية.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ١٦٢/١، «القواعد المثلى» ص ٢٧٥ (ضمن مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ج٣).

وهي نوعان: آيات شرعية، وآيات كونية.

- **فالآيات الشرعية:** هي ما جاءت به الرسل، قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»[١].
- **والآيات الكونية:** هي المخلوقات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٢].

الإلحاد في الآيات الشرعية:

يقع الإلحاد في الآيات الشرعية بأحد ثلاثة أشياء:

١- بتكذيبها، كفعل مشركي قريش الذين قالوا عن آيات الله بأنها ﴿**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾[٣].

٢- بتحريفها، كحال الرافضة والجهمية وأضرابهم.

٣- بمخالفتها وعصيانها بترك مأمور، أو فعل محظور، كحال العصاة والفساق، وعلى هذا فالفساق ملحدون؛ لأنهم مائلون عما يجب عليهم في آيات الله الشرعية، وهذا يختلف عن مفهوم الإلحاد المتعارف عليه اليوم حيث يطلق على نفي الوجود الحق.

الإلحاد في الآيات الكونية:

وهو ثلاثة أنواع:

١- إنكار أن يكون الله هو الخالق لها، ومن ذلك خرافة ما يسمى بـ(التوالد الذاتي)[٤].

٢- إضافتها إلى غيره سبحانه، كحال المشركين الذين ينسبون بعض التدبير إلى غير الله عز وجل.

٣- اعتقاد أن لله تعالى فيها شريكًا أو معينًا.

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٩٨١، ومسلم رقم ٢٣٩.

(٢) سورة فصلت آية ٣٧.

(٣) سورة النحل آية ٢٤.

(٤) وقد سقطت هذه النظرية عند أهلها بالدليل العلمي القاطع والتجربة العلمية على يد العالم الفرنسي باستير، وكفى الله المؤمنين القتال. انظر: «العقيدة في الله» لعمر الأشقر، ص ٤٦-٤٧.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

فغير خافٍ على من عنده أدنى إلمام بعلم العقيدة ما لتوحيد الألوهية من الأهمية؛ فهو توحيد العبادةِ، والعبادةُ هي الغاية المرضية والمحبوبة لله _عز وجل_ وهي الغاية العظمى، والمقصود الأسمى؛ فلأجلها أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وخلقت الجنة والنار.

ثم إن توحيد الألوهية دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، ومن اقتفى أثرهم من العلماء، والدعاة والمصلحين.

وفيما يلي من صفحات سيكون الحديث عن توحيد الألوهية، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: أهمية توحيد الألوهية، وأدلته، ووقوع الضلال فيه.

المبحث الثالث: علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

المبحث الرابع: طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية في القرآن الكريم.

المبحث الخامس: مفهوم العبادة.

المبحث السادس: شروط قبول العبادة، وأهمية ذلك.

المبحث السابع: أركان العبادة، وحكم تغليب بعضها على بعض.

هذا ما تيسر جمعه وتقييده في هذا الباب؛ فأسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته

العلى أن ينفع بهذه الصفحات، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

والله أعلم،وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

المبحث الأول: مفهوم توحيد الألوهية

أولاً: تعريف توحيد الألوهية

عرف العلماء توحيد الألوهية بتعريفات متقاربة، إلا أن بعضها قد يكون أطول من بعض، فمن تلك التعريفات ما يلي:

١ـ هو إفراد الله بأفعال العباد.

٢ـ هو إفراد الله بالعبادة.

٣ـ هو إفراد الله ـتعالىـ بجميع أنواع العبادة؛ الظاهرة، والباطنة، قولاً، وعملاً، ونفي العبادة عن كل من سوى الله ـتعالىـ كائناً من كان[1].

٤ـ وعرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله بتعريف جامع ذكر فيه حدَّه، وتفسيره، وأركانه، فقال: «فأما حدُّه، وتفسيره، وأركانه فهو أن يعلم، ويعترف على وجه العلم، واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله ـتعالىـ.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقّاً أفرده بالعبادة كلها: الظاهرة، والباطنة؛ فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام

١ـ انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة للشيخ حافظ الحكمي، ص٥١.

بحقوق الله، وحقوق خلقه.

ويقوم بأصول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره لله.

لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربِّه، وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول الله ﷺ.

فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه، وآدابه الاقتداءُ بنبيه ﷺ في هديه، وسمته، وكل أحواله»[1].

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله عن هذا النوع في منظومته سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:

هـذا وثـانِي نـوعي التوحيـدِ   إفـرادُ ربِّ العـرش عـن نديـد

أن تعبـد اللهَ إلهـاً واحـداً   معترفـاً بحقـه لا جاحـدا[2]

ثانياً: أسماء توحيد الألوهية

توحيد الألوهية يسمى بعدة أسماء منها:

١_ **توحيد الألوهية** _كما مر_ وسمي بذلك باعتبار إضافته إلى الله، أو باعتبار الموحَّد، ولأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة.

١_ انظر الحق الواضح المبين لابن سعدي ١١٢_١١٣، والفتاوى السعدية لابن سعدي ص١٠_١١، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق العباد البدر ١٥١_١٥٢.

٢_ سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ الحكمي ص٢٩.

٢_ **توحيد العبادة**؛ باعتبار إضافته إلى الموحِّد وهو العبد، ولتضمنه إخلاص العبادة لله وحده.

٣_ **توحيد الإرادة**؛ لتضمنه الإخلاص، وتوحيد الإرادة والمراد، فهو مبني على إرادة وجه الله بالأعمال.

٤_ **توحيد القصد**؛ لأنه مبنيٌّ على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده.

٥_ **التوحيد الطلبي**؛ لتضمنه الطلب، والدعاء من العبد لله.

٦_ **التوحيد الفعلي**؛ لتضمنه أفعالَ القلوب والجوارح.

٧_ **توحيد العمل**؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده[١].

ثالثاً: أركان توحيد الألوهية

توحيد الألوهية يقوم على أركان ثلاثة هي:

١_ توحيد الإخلاص: ويسمى توحيد المراد، فلا يكون للعبد مرادٌ غير مراد واحد وهو الله _سبحانه وتعالى_ فلا يزاحمه مرادٌ آخر.

٢_ توحيد الصدق: ويسمى توحيد إرادة العبد، وذلك بأن يبذل جهده وطاقته في عبادة ربه.

٣_ توحيد الطريق: وهو المتابعة للرسول ﷺ.

١_ انظر تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان ابن عبدالله ص٣٨.

قال ابن القيم رحمه الله:

فلواحـــدٍ كـــن واحـــداً في واحـــدٍ أعـــني ســـبيل الحـــق والإيمـــان

فقوله: (فلواحدٍ): أي لله، وهذا هو توحيد المراد.

وقوله: (كن واحداً): في عزمك، وصدقك، وإرادتك، وهذا هو توحيد الإرادة.

وقوله (في واحد): هو متابعة الرسول ﷺ الذي هو طريق الحق والإيمان، فهذا هو توحيد الطريق[1].

والأدلة على هذه الأركان الثلاثة كثيرة، فمن أدلة الإخلاص قوله _تعالى_:[وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ](البينة: ٥).

ودليل الصدق قوله _تعالى_:[فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ](محمد: ٢١)، وقوله:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] (التوبة: ١١٩)، ودليل المتابعة قوله _تعالى_: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ] (آل عمران: ٣١).

فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء[2].

١_ انظر: شرح القصيدة النونية لابن القيم، شرح الشيخ محمد خليل هراس ١٣٤/٢.

٢_ انظر الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص١٥٢، والأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز السلمان ص٤٢_٤٣.

المبحث الثاني: أهمية توحيد الألوهية، وأدلته، ووقوع الضلال فيه

أولاً: أهمية توحيد الألوهية

لتوحيد الألوهية أهمية عظمى، وتتجلى تلك الأهمية في أمور منها:

١_ أن توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد: فمن أجل تحقيقه أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسلت سيوف الجهاد، وفرق بين المؤمنين والكافرين.

يقول الشيخ حافظ الحكمي عن أهميته في منظومته:

وهو الذي به الإله أرْسلا رسْلَه يدعون إليه أولا

وأنزل الكتابَ والتبيانا من أجله وفرَّق الفرقانا

وكلف الله الرسولَ المجتبى قتالَ مَنْ عَنْهُ تولى وأبى

حتى يكونَ الدينُ خالصاً له سرًّا وجهراً دقَّه وجلَّه

وهكذا أمته قد كلفوا بذا وفي نص الكتاب وصفوا[1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً أهمية توحيد العبادة: «وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها _كما قال الله تعالى_: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات: ٥٦).

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ](الأعراف: ٥٩).

إلى أن قال رحمه الله: «وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال _تعالى_: [وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ

١_ سلم الوصول ص٢٩_٣٠.

(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)] (الأنبياء).

وذم المستكبرين عنها بقوله:[وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ] (غافر: ٦٠).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال ـ تعالى ـ:[عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً] (الإنسان:٦).

وقال:[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً](الفرقان: ٦٣)»[1].

وقال رحمه الله في موطن آخر: «واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس عليه، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقةَ العبدِ قلبُه وروحُه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن بالدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه.

ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذاتٌ أو سرورٌ بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ ـ غير منعمٍ ولا ملتذٍ له، بل قد يؤذيه اتصالُه به، ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل حال، وكل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ :[لا أُحِبُّ الآفِلِينَ](الأنعام: ٧٦).

وكان أعظم آية في القرآن الكريم:[اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] (البقرة:

---

١ ـ العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٩ ـ ٤٠.

٢٥٥)»[١].

وقال رحمه الله: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله _سبحانه_.

ومن عبد غير الله وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة_ فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ آكل الطعام المسموم»[٢].

وقال رحمه الله: «واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سبباً لعذابه»[٣].

وقال: «فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عُذِّب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثرُ مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار بالاستقراء.

وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثرُ من نفعه؛ فصارت المخلوقات وبالاً عليه، إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال للعبد.

وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه**»[٤][٥].

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله مبيناً أهمية هذا النوع: «وهذا الأصل أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها، وأفضلها، وأوجبها، وألزمها لصلاح

١_ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/٢٤_٢٥.
٢_ مجموع الفتاوى ١/٢٤.
٣_ مجموع الفتاوى ١/٢٨.
٤_ مجموع الفتاوى ١/٢٩.
٥_ أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه (٤١١٢) و قال الترمذي: «حسن غريب» وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).

الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجنَّ والإنسَ لأجله، وخلق المخلوقات، وشرع الشرائعَ لقيامه.

وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفَرْق بينهم وبين المشركين»[١].

٢ـ أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة متوقفة عليه: فهي متوقفة في قبولها، وفي كمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد؛ فكلما قوي التوحيد والإخلاص كملت هذه الأمور وتمت.

وإذا كمل في قلب صاحبه حُبِّبَ إليه فعل الخيرات، وترك المنكرات، وصار من الراشدين.

٣ـ ما يترتب عليه من الفضائل، والثمرات الجليلة: وقد مرَّ ذكر بعضها، ومنها أن العبد يتحرر من رق المخلوقين، ومن التعلق بهم خوفاً ورجاءً.

وهذا هو العزُّ الحقيقي، والشرف العالي.

وإذا كمل في القلب صار القليل من العمل كثيراً؛ بحيث تضاعف أجور صاحبه أضعافاً كثيرة.

ثانياً: أدلة توحيد الألوهية

لقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة، وتنوعت دلالتها في وجوب إفراد الله بالعبادة؛ فتارة تأتي نصوص الكتاب آمرةً بتوحيد الله أمراً مباشراً، وتارة تأتي

١ـ انظرالقواعد الحسان لتفسير القرآن لابن سعدي، ص١٩٢.

مبينةً الهدف من خلق الجن والإنس، وتارة تأتي موضحةً الغايةَ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتارة تأتي محذرةً من مخالفته، وتارة تأتي لبيان ثواب من عمل به في الدنيا والآخرة، وتارة لبيان عقوبة من تركه، وتخلى عنه، أو ناوأه، وحارب أهله.

فمن تلك الأدلة من الكتاب والسنة على وجود إفراد الله بالعبادة قوله ـتعالىـ:[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ](البقرة: ٢١).

وقوله:[فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ](هود:١٢٣).

وقوله:[فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ](قريش:٣).

وقوله:[وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً](النساء:٣٦) وقوله:[قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً] (الأنعام:١٥١) وقوله:[وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ] (الإسراء:٢٣) وقوله:[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات:٥٦) وقوله:[وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً](الإسراء:٣٩) وقوله:[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] (الفاتحة:٥) وقوله:[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ] (الأنبياء:٢٥) وقوله:[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ] (النحل:٣٦).

ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن معاذ ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟**».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**».

قلت: أفلا أبشر الناس؟

قال: «**لا تبشرهم، فيتكلوا**»[1].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه الأدلة في مباحث آتية.

ثالثاً: مضادة توحيد الألوهية

يضاد توحيد الألوهية: **الشرك** الذي يذهب به بالكلية، **والبدع** التي تذهب بكماله الواجب، **والمعاصي** التي تقدح فيه، وتنقص ثوابه.

رابعاً: الفرق التي أشركت في توحيد الألوهية

الفرق التي أشركت في هذا النوع من التوحيد كثيرة منها:

١_ اليهود: الذين عبدوا العجل، ولا يزالون يعبدون الدرهم والدينار؛ فالمال هو معبودهم.

٢_ النصارى: لادعائهم ألوهية المسيح _عليه السلام_ وعبادتهم له.

٣_ الشيعة: لدعائهم علياً، والعباس _رضي الله عنهما_ وغيرهما من آل البيت.

٤_ النصيرية: لعبادتهم علياً رضي الله عنه وزعمهم أنه الإله[2].

٥_ الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي[1].

١_ البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠).

٢_ انظر الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية (العلوية) لسليمان أفندي الأذني، دار الصحوة، ص٣٦، وانظر النصيرية لسهير الفيل، دار المنار، ص٤٧_٤٨.

٦_ **غلاة الصوفية، وعباد القبور:** لغلوهم في الأولياء، وصرف النذور، والقرابين لأصحاب القبور، وطوافهم حول القبور إلى غير ذلك من القربات التي تصرف لأصحابها.

١_ انظر إلى: عقيدة الدروز، عرض ونقض د. محمد أحمد الخطيب، ص١١٧_١٣٥، دار عالم الكتب.

المبحث الثالث: علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية

أنواع التوحيد متلازمة، وبعضها مرتبط ببعض، وفيما يلي بيان لشيء من علاقة توحيد الألوهية؛ بتوحيد الربوبية والعكس:

١_ **توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية:** بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية؛ فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره، وقد دعاه هذا الخالق إلى عبادته وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له؛ فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده لزم إفراده بالعبادة.

٢_ **توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية:** بمعنى أن توحيد الربوبية يدخل ضمناً في توحيد الألوهية، فمن عَبَدَ الله وحده لا شريك له فلابد أن يكون معتقداً أنه ربه وخالقه ورازقه؛ إذ لا يعبد إلا من بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر.

٣_ **توحيد الربوبية عمل قلبي لا يتعدى القلب،** ولذا سمي توحيد المعرفة والإثبات، أو التوحيد العلمي.

أما توحيد الألوهية فهو عمل قلبي وبدني، فلا يكفي فيه عمل القلب، بل يتعداه إلى السلوك والعمل قصداً لله وحده لا شريك له.

٤_ **أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده:** ذلك لأن توحيد الربوبية مركوز في الفطر، فلو كان كافياً لما احتاج الناس إلى بعثة الرسل، وإنزال الكتب، فلا يكفي أن يقر الإنسان بما يستحقه الرب _تعالى_ من الصفات، وأنه الرب الخالق وحده.

ولا يكون موحداً إلا إذا شهد أن لا إله إلا الله، فيقر ويعلم بأن الله هو المألوه

المعبود وحده، ويعبده بمقتضى هذا الإقرار والعلم.

٥_ **توحيد الألوهية هو الذي جاءت به الرسل:** وهو الذي حصل به التراع بينهم وبين أممهم، كما قال قوم هود لنبيهم هود _عليه السلام_ عندما قال لهم: [اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] (الأعراف: ٥٩) [قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا(٧٠)] (الأعراف).

وكما قال كفار قريش لما أُمِروا بإفراد الله بالعبادة:[أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ] (ص: ٥).

أما توحيد الربوبية فإنهم لم ينكروه، بل إن إبليس لم ينكره [قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي] (الحجر: ٣٩).

٦_ **أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:** ومعنى ذلك أنهما إذا ذكرا جميعاً في سياق واحد صار لكل واحد منهما معنى خاص يُراد به، كما في قوله _تعالى_: [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ(٣)] (الناس).

فيكون معنى الرب: هو المالك المتصرف، وهذا توحيد الربوبية، ويكون معنى الإله: المعبود بحق المستحق للعبادة دون سواه وهذا توحيد الألوهية.

وتارة يذكر أحدهما مفرداً عن الآخر فيجتمعان في المعنى؛ كما في قول الملكين للميت في القبر: «من ربك؟»، ومعناه: من إلهك؟ وكما في قوله _تعالى_: [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ] (الحج: ٤٠)، وقوله: [قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً](الأنعام: ١٦٤)، وقوله: عن الخليل _عليه السلام_: [رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ] (البقرة: ٢٥٨)، وكما في قوله _تعالى_: [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ] (النمل: ٦٢).

٧_ لابد لسلامة التوحيد، والفوز بالدارين من تحقيق هذين الأمرين[١].

١_ انظر الإرشاد ص٢١_٢٣.

المبحث الرابع: طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية في القرآن الكريم

تنوعت طرق الدعوة إلى توحيد الألوهية وأساليبها في القرآن الكريم، وقد مرَّت الإشارة إلى شيء من ذلك، وفيما يلي مزيد بسط لهذا الأمر:

١ـ أمر الله ـسبحانه ـ بعبادته: قال ـتعالى ـ: [وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً] (النساء:٣٦).

٢ـ نهي الله ـعز وجل ـ عن عبادة مَنْ سواه: كما في قوله ـتعالى ـ: [فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (البقرة: ٢٢).

٣ـ إخبار الله ـسبحانه وتعالى ـ أنه خلق الخلق لعبادته: كما في قوله: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)] (الذاريات).

٤ـ إخبار الله أنه أرسل الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة غيره: كما في قوله: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ] (النحل: ٣٦).

٥ـ الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: فإذا كان الله ـتعالى ـ هو الخالق الرازق الذي لم يشاركه في ذلك مشارك وجب أن لا يُتَأَلَّهَ لغيره، ولا يُتَعَبَّدَ سواه، ولزم أن يُخَصَّ بالتوحيد كما قال ـتعالى ـ:[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (البقرة: ٢١).

٦ـ الاستدلال على وجوب عبادته بكونه النافع، الضار، المعطي، المانع: فمن اتصف بهذه الصفات فهو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه.

٧ـ الاستدلال على وجوب عبادته بانفراده بصفات الكمال، وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين، كما في قوله ـتعالىـ: [فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً] (مريم: ٦٥).

وقوله: [وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (١٨٠)] (الأعراف).

وقوله عن خليله ـعليه السلامـ أنه قال لأبيه: [إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً] (مريم:٤٢).

٨ـ الاستدلال على وجوب عبادته بدقة صنعه: فكلما تدبر العاقل ذلك، وتغلغل فكره فيه، وازداد تأمله في ذلك علم أنه هو المستحق للعبادة.

٩ـ الاستدلال على وجوب عبادته بتعدد نعمه: فإذا عُلِمَ أن ما بالعباد من نعمة فمن الله وحده، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً إلا بإذن الله، وأن الله هو النافع الضار ـ علم أن الله هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

١٠ـ تعجيز الله لآلهة المشركين: كقوله ـتعالىـ: [أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢)] (الأعراف) وقوله: [قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً] (الإسراء:٥٦) وقوله: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ] (الحج:٧٣).

١١ـ تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله: كما في قوله ـتعالىـ: [أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(٦٧)] (الأنبياء)، وقوله: [وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ] (البقرة:١٣٠).

١٢ـ بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله: وبيان مآلهم مع من عبدوهم؛ حيث تتبرأ منهم تلك المعبوداتُ في أحرج المواقف كما قال ـتعالىـ: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ (١٦٧)] (البقرة).

وقوله: [وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ] (فاطر: ١٤).

١٣ـ بيان مصير الموحدين وعاقبتهم في الدنيا والآخرة: كما قال الله عن إمامهم إبراهيم ـعليه السلامـ: [وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ] (البقرة:١٣٠).

وقوله: [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] (الأنعام: ٨٢).

١٤ـ رده على المشركين باتخاذ الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له ـسبحانهـ لا تطلب من سواه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وبَعْدَ رضاه عن المشفوع له، قال ـسبحانهـ: [أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ(٤٤)] (الزمر).

وقال: [مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ] (البقرة:٢٥٥).

١٥_ بيان أن هؤلاء المعبودين من دون الله لا يحصل منهم نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه كما قال _تعالى_: [قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ(٢٣)] (سبأ).

١٦_ ذكر البراهين والأمثلة الدالة على بطلان الشرك، وسوء عاقبته، مما يجعل النفوس السليمة تنفر منه، قال _تعالى_: [وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ] (الحج:٣١)[١].

١_ انظر تيسير العزيز الحميد ص٣٨_٣٩، ودعوة التوحيد للهراس، ٣٩_٤٥، والإرشاد ص ٢٥_٢٨، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص١٥٤_١٥٦.

المبحث الخامس: مفهوم العبادة

أولاً: تعريف العبادة لغةً، واصطلاحاً

١ــ تعريف العبادة لغةً: هي التذلل والخضوع، فيقال: بعير معبد أي مذلل، وطريق معبد أي مذلل، ذللته الأقدام.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته المشهورة يصف ناقته:

تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت ... وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد[١]

فقوله: فوق مور معبد: أي فوق طريق مذلل من كثرة السير عليه، فالمور هو الطريق.

٢ــ تعريف العبادة في الاصطلاح: عرفت العبادة في الاصطلاح بعدة تعريفات، ومنها ما يلي:

أــ عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنها: «اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٢].

بــ وعرفها ابن القيم بأنها: «كمال المحبة مع كمال الذل».

وقال في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان[٣]

جــ وعرفها الشيخ ابن سعدي رحمه الله بعدة تعريفات منها قوله: «العبادة

١ــ شرح المعلقات العشر للزوزني، ص٩٧.
٢ــ العبودية، ص(٣٨).
٣ــ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص٣٢.

روحُها وحقيقتُها تحقيقُ الحبِّ والخضوع لله؛ فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة؛ فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها»[١].

د_ وعرفها بتعريف ثانٍ فقال: «العبادة والعبودية لله اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال، والتروك فهو عبادة؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك»[٢].

ومما ينبغي التنبيه عليه أن العبادة تطلق إطلاقين:[٣]

الأول: الفعل الذي هو التَّعَبُّد.

الثاني: المفعول وهو المُتَعَبَّدُ به أو القربة.

مثال ذلك الصلاة ففعلها عبادة وهو التعبد، وهي نفسها عبادة وهي المتعبد به.

فعلى الإطلاق الثاني تُعَرَّف العبادة بتعريف شيخ الإسلام، وعلى الإطلاق الأول تُعَرَّف بالتعريف الثاني والثالث.

أما التعريف الرابع الذي هو تعريف ابن سعدي فإنه يشمل الإطلاقين الفعلِ والمفعولِ.

ومن التعريفات للعبادة _أيضاً_: «الأعمال الصالحة الإرادية التي تُؤَدَّى لله

١_ الحق الواضح المبين، ص٥٩_٦٠.

٢_ الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص١٦٢.

٣_ انظر القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عثيمين، ١/١٠.

تعالى ويفرد بها»[١].

وهذا يشمل الإطلاقين _أيضاً_.

الفرق بين العبادة وتوحيد العبادة ظاهر؛ فالعبادة هي ذات القربة أو فعلها. أما توحيدها فصرفها لله وحده لا شريك له.

ثانياً: أنواع العبادة

العبادة لها أنواع كثيرة، فبعضها قولي؛ كشهادة أن لا إله إلا الله، وبعضها فعلي؛ كالجهاد في سبيل الله، وإماطة الأذى عن الطريق، وبعضها قلبي؛ كالحياء، والمحبة، والخوف، والرجاء، وغيرها، وبعضُها مشترك كالصلاة مثلاً، فإنها تجمع ذلك كله.

ومن أنواع العبادة _زيادة على ماسبق_: الزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد المنافقين والكفار، والإحسان إلى الحيوان، والأيتام، والمساكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والدعاء، والذكر، وكذلك الذبح، والنذر، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستعانة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار.

وهذه العبادات لا يجوز صرفها إلا لله، ومن صرفها لغيره فقد أشرك[٢].

١_ عبودية الكائنات لرب العالمين لفريد التوني، ص٢٥.

٢_ انظر تيسير العزيز الحميد ص٣٩_٤٢، والإرشاد للشيخ صالح الفوزان، ص١٩، وانظر عقيدة التوحيد للشيخ محمد خليل هراس ص٤٧_٧٠.

ثالثاً: عبودية الخلق لله

تنقسم عبودية الخلق لله إلى ثلاثة أقسام:

١_ **عبودية عامة:** ويشترك فيها كافة الخلق؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم.

قال _تعالى_:[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً] (مريم: ٩٣).

فهذه عبودية الربوبية؛ فالخلق _بهذا الاعتبار_ كلهم عبيد لله مربوبون له.

٢_ **عبودية خاصة:** وهي عبودية الألوهية، وهي عبودية عباد الله الصالحين وهم كلُّ من تَعبَّد لله بشرعه، وأخلص في عبادته.

قال _تعالى_: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً] (الفرقان:٦٣).

ولهذا أضافهم إلى اسمه إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، وهذه إضافة التشريف.

٣_ **عبودية خاصة الخاصة:** وهي _أيضاً_ عبودية الألوهية، وهي للأنبياء والمرسلين الذين لا يباريهم ولا يدانيهم أحد في عبادتهم لله، قال _تعالى_: [وَاذْكُرْ عِبَادَنَا] (ص:٤٥) وقال عن نوح:[إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً](الإسراء: ٣)، وقال عن داود _عليه السلام_: [وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (ص:١٧) وقال عن محمد ﷺ: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ] (الإسراء:١)، وقال: [وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً] (الجن:١٩)[1].

١_ انظر القول المفيد للشيخ محمد بن عثيمين ٢٨/١_٢٩.

المبحث السادس: شروط قبول العبادة، وأهمية ذلك

أولاً: شروط قبول العبادة

لا تقبل العبادة إلا إذا توافر فيها شرطان:

١_ الإخلاص لله.

٢_ المتابعة للرسول ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال _تعالى_: [فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً] (الكهف: ١١٠).

وذلك تحقيق الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله؛ ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه؛ فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره»[١].

فمن أراد عبادة الله فلابد له من توافر هذين الشرطين، ولسان حاله يقول: (إياك أريد بما تريد).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله _تعالى_: [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] (الملك: ٢).

قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه؟

١_ العبودية، ص١٧٠.

قال: إن العمل إذا كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[١].

فإذا فُقِد الشرطان أو أحدُهما بطلت العبادة.

وتوضيح ذلك بالمثال الآتي: لو أن شخصاً صلى لغير الله، وعلى صفة غير الصفة التي علمنا إياها رسول الله ﷺ لردت عبادته، لماذا؟ لأنه فقد الشرطين معاً.

كذلك لو صلى كما كان الرسول ﷺ يصلي؛ بحيث أتى بصفة الصلاة الظاهرة كاملة، ولكنه صرفها لغير الله لبطلت عبادته، لماذا؟ لأنه فقد الإخلاص، والله ــسبحانهــ يقول: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ]

(النساء:٤٨).

وقال ــتعالىــ: [وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الأنعام:٨٨).

كذلك لو صلى لله، ولكن على صفة غير الصفة التي علمنا إياها الرسول ﷺ؛ بحيث ابتدع صفة من عنده بطلت عبادته؛ لأنه فقد المتابعة، والرسول ﷺ يقول في الحديث المتفق عليه: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢].

أي مردود، والجار والمجرور في قوله: «**عليه**» متعلق بمحذوف تقديره (حاكماً أو مهيمناً).

وفي رواية أخرى للحديث «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو**

١ـ انظر العبودية، ص٧٦.
٢ـ مسلم (١٧١٨) وأحمد ١٤٦/٦.

رد»[(١)].

وهذان الشرطان في الحقيقة متلازمان؛ فإن من الإخلاص لله أن يُتَّبَعَ النبي ﷺ واتِّبَاعُه _عليه الصلاة والسلام_ مستلزم للإخلاص.

ثانياً: أهمية الإخلاص والمتابعة

للإخلاص والمتابعة اللذين هما شرطا قبول العبادة أهمية عظمى، وتتجلى هذه الأهمية في أمور منها:

١_ أن الله أمر بإخلاص العبادة له: قال _تعالى_: [وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] (الأعراف: ٢٩).

٢_ أن الله _تعالى_ اختص نفسه بالتشريع: فهو حقه وحده، ومن تَعَبَّد الله بغير ما شرع فقد شارك الله _عز وجل_ في تشريعه، قال _تعالى_:[شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ] (الشورى: ١٣).

وقال:[وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ] (الأنعام: ١٥٣).

٣_ أن الله أنكر على من يشرِّع من عند نفسه: قال _تعالى_:[أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ] (الشورى: ٢١).

٤_ أن الله أكمل لنا الدين، ورضيه لنا: قال _تعالى_: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً] (المائدة:٣).

فالابتداع في الدين إنما هو في الحقيقة استدراك على الله، وعلى رسوله ﷺ

١_ البخاري١٦٧/٣، ومسلم (١٧١٨).

واتهام للدين بالنقص.

٥ـ ضَبْطُ أمورِ العباد في تقربهم إلى الله: فلو جاز للناس أن يتعبدوا بما شاؤوا، كيفما شاؤوا لأصبح لكل إنسان طريقتُه الخاصة بالعبادة، ولأصبحت حياةُ الناس جحيماً لا يطاق؛ إذ يسود التناحر والتنافر؛ لاختلاف الأذواق، مما يؤدي إلى الشقاق والافتراق.

والاتباعُ وترك الابتداع أعظمُ سببٍ للائتلاف والاجتماع.

٦ـ ظهور الحاجة إلى ما جاءت به الرسل: فلو جاز للناس أن يعبدوا الله بما شاؤوا كيفما شاؤوا لترتَّب على ذلك عدم حاجة الناس إلى الرسل، ولا يقول بهذا عاقل.

المبحث السابع: أركان العبادة، وحكم تغليب بعضها على بعض

أولاً: أركان العبادة

للعبادة ثلاثة أركان، هي:

١ـ الحب ٢ـ الخوف ٣ـ الرجاء

وجعلها بعض أهل العلم أربعة:

الحب، والتعظيم، والخوف، والرجاء.

ولا تعارض بين الأمرين؛ فإن الرجاء ينشأ من الحب، فلا يرجو الإنسان إلا من يحب، وكذلك الخوف ينشأ من التعظيم، فلا يخاف الإنسان إلا من عظيم.

وقد أثنى الله على أهل الخوف والرجاء من النبيين والمرسلين، فقال:[إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ] (الأنبياء: ٩٠).

ومدح القائمين بذلك من سائر عباده، فقال:[أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ](الزمر: ٩).

وقال ـسبحانه وتعالىـ: [وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ] (الإسراء:٥٧).

وقال: [تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] (السجدة: ١٦).

كما أمر ـعز وجلـ باستحضار ذلك وقصْدِه فقال: [وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً] (الأعراف: ٥٦).

هذه هي عبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله المؤمنين، فمن ذا الذي هو

أحسن منهم؟ وأكمل من هديهم؟ وهل تقبل دعواه؟

الجواب: لا؛ فالخوف والرجاء متلازمان؛ فكلاهما بريد الفوز بالجنة، والنجاة من النار، فلو سألت من لا يأكل الربا من المؤمنين مثلاً مع قدرته عليه؛ فقلت له: لم لا ترابي؟ لبادر بقوله: إني أخاف الله، وأرجو ثوابه.

ولو سألت المصلي لِمَ تصلي؟ لقال: خوفاً من الله وطمعاً في ثوابه، وهكذا...

فَغَيْرُ الله قد يُحَبُّ، ولكن لا يُخاف منه، وقد يُخاف منه، ولكن لا يُحب.

أما الله _عز وجل_ فيجتمع الأمران في حقه؛ فيُخاف ويحب، فلابد للمؤمن _إذاً_ من الجمع بين الحب، والخوف، والرجاء، والتعظيم.

أما العبادة بالحب وحده فلا تكفي، وليست صحيحة؛ لأنها لا تتضمن تعظيماً لله، ولا خشيةً منه؛ إذ إن صاحبها يجعل الله _سبحانه_ بمنزلة الوالد والصديق، فلا يتورع من اقتراف المحرمات، بل يستهين بها؛ بحجة أن الحبيب لا يعذب حبيبه، كما قالت اليهود والنصارى:[نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ] (المائدة:١٨).

وكما يقول غلاة الصوفية: نحن نعبد الله لا خوفاً من عقابه، ولا طمعاً في ثوابه، إنما نعبد الله حباً له كما عبر بذلك كثير منهم كرابعة العدوية التي تقول:

أحبك حبين حبَّ الهوى ... وحبَّاً لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجبَ حتى أراكا[1]

وكما قال ابن عربي:

---

١ _ الصوفية في نظر الإسلام، دراسة وتحليل لسميح عاطف الزين، ص٢٥٧.

أدين بـدين الحـب أنى توجهـت ركائبه فالحـب ديـني وإيمـاني[١]

ولا شك أن هذا مسلك باطل، وطريقة فاسدة، لها آثار وخيمة منها الأمن من مكر الله، وغايته الخروج من الملة؛ فالذي يتمادى في التفريط والخطايا ويرجو رحمة ربه بلا عمل يقع في الغرور، والأماني الباطلة، والرجاء الكاذب.

كذلك العبادة بالخوف وحده دون الحب والرجاء ليست صحيحة، بل هي باطلة فاسدة، وهي طريقة الخوارج الذين لا يجعلون تعبدهم لله مقروناً بالمحبة، فلا يجدون للعبادة لذة، ولا إليها رغبة، فتكون منزلة الخالق عندهم كمنزلة سلطان جائر، أو ملك ظالم.

وهذا مما يورث اليأس أو القنوط من رحمة الله، وغايته الكفر بالله، وإساءة الظن به.

قال ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني**»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل وفاته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ـعز وجلـ**»[٣].

وحسن الظن هو الباعث على العمل؛ الذي يلزم منه تحري الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرةِ عند الاستغفار، والإثابةِ عند العمل.

أما ظن المغفرة والإجابة والإثابة مع الإصرار على الذنوب والتقصير في العمل

١ـ الشعر الصوفي إلى مطلع القرن التاسع للهجرة، د.محمد بن سعد ابن حسين، ص١٧٢.

٢ـ رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

٣ـ رواه مسلم (٢٨٧٧).

فليس من حسن الظن في شيء، بل هو سَفهٌ وجهلٌ وغرور.

فلابد ـ إذاً ـ للعابد أن يكون الله أحبَّ إليه من كل شيء، وأن يكون الله أعظمَ عنده من كل شيء؛ فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله؛ فإنك إذا خفته فررت إليه، فالخائف من الله هارب إليه، قال ـ تعالى ـ: [فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ] (الذاريات: ٥٠).

وهناك مقولة مشهورة عند السلف، وهي قولهم: «من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف، والرجاء، والحب، فهو مؤمن موحد»[1].

ثانياً: حكم تغليب أركان العبادة على بعض

هناك سؤال يدور كثيراً وهو، أيهما يُغَلَّب؟ الخوف أو الرجاء.

الجواب: أنه اختُلف في ذلك على أقوال منها:

١ ـ **قيل**: ينبغي أن يغلِّب الإنسان جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على فعل الطاعة وترك المعصية.

٢ ـ **وقيل**: يغلِّب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

٣ ـ **وقيل**: في فعل الطاعة يغلب الرجاء؛ لينبعث إلى العمل؛ فالذي منَّ عليه بالطاعة سَيَمُنُّ عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء

١ ـ انظر العبودية، ص١٢٨.

فانتظر الإجابة؛ لأنه يقول:[ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ](غافر:٦٠).

وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه ذلك من فعل المعصية، قال _تعالى_:[قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (الأنعام:١٥).

وهذا قريب ولكن ليس بالقرب الكامل، إذ قد يُعْتَرض عليه بقوله _تعالى_: [وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ] (المؤمنون: ٦٠).

٤_ وقيل: يغلب جانب الخوف في الصحة، وجانب الرجاء في المرض.

٥_ وقيل: هما كجناحي الطائر، فالمؤمن يسير إلى الله بجناحين هما الرجاء والخوف، فإذا استويا تم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

٦_ وقيل يختلف من شخص إلى شخص، ومن حال إلى حال.

٧_ وقيل: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المَرْكَبُ، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله المُوصل بمنِّه وكرمه.[1]

١_ انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٣٠_٣٢، والقول المفيد ١/٥١_٥٢، و٢/١٦٤_١٦٥، وانظر الرسالة الثانية عشرة مسائل في المحبة، والخوف، والرجاء للكاتب.

ثانياً: نبذة في الشرك

أولاً: تعريف الشرك: هو أن يشرك مع الله غيره في حق من حقوقه.

أو هو أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو أن يُعظَّم كما يعظم الله، أو أن يُصرَف له نوع من أنواع الألوهية أو الربوبية.

ثانياً: أقسام الشرك: ١_ شرك أكبر. ٢_ شرك أصغر.

ثالثاً: تعريف الشرك الأكبر: هو اتخاذ العبد نداً من دون الله يسوِّيه بربِّ العالمين.

رابعاً: تعريف الشرك الأصغر: ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

أو هو الذرائع والوسائل الموصِّلة للشرك الأكبر.

خامساً: أمثلة للشرك الأكبر: ١_ الذبح لغير الله.

٢_ النذر لغير الله.

٣_ الطواف بالقبور، ودعاء أهلها من دون الله.

٤_ دعاء الأموات والغائبين كما يُدعى الله _عز وجل_.

٥_ محبة غير الله كحبِّ الله.

٦_ الخوف من غير الله كالخوف من الله.

٧_ الاستعاذة والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٨_ جعل العبد وسائط بينه وبين الله يدعوهم، ويتوكل عليهم.

سادساً: أمثلة للشرك الأصغر: ١_ الحلف بغير الله.

٢ـ تعظيم المخلوق تعظيمًا لا يبلغ رتبة العبادة.

٣ـ تعليق التمائم والحروز؛ بزعم أنها تدفع العين ونحو ذلك.

٤ـ الصلاة لله عند القبور.

سابعاً: الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر: هناك فروق عديدة منها:

١ـ يختلفان في التعريف كما مرَّ.

٢ـ الشرك الأكبر محكوم على صاحبه بالخروج من الملة، والتخليد في النار، أما الأصغر فبخلاف ذلك.

٣ـ الأكبر يحبط جميع الأعمال، والأصغر يحبط العمل الذي قارنه.

٤ـ الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة، أما الأصغر ففيه خلاف، والصحيح ـ والله أعلم ـ أنه تحت المشيئة.

ثامناً: ضوابط في تمييز الشرك الأصغر من الأكبر:

١ـ صريح النص كقوله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**».

٢ـ أن يأتي منكَّراً: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**».

٣ـ ما يفهمه الصحابة من النص أنه أصغر؛ فهم أعلم الناس بمعاني نصوص الكتاب والسنة.

تاسعاً: أسباب وقوع الشرك: ١ـ الجهل. ٢ـ الإعجاب، والتعظيم.

٣ـ الميل إلى الأمور المحسوسة. ٤ـ الهوى، والشهوات.

٥ـ التقليد الأعمى للآباء والأجداد. ٦ـ علماء السوء، وجهلة العُبَّاد.

٧ـ وجود طواغيت يصدون النـــاس عن عبـــادة الله.

٨ـ حب المال والشهرة والجاه. ٩ـ الكبر.

١٠ـ التقصير في جانب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عاشراً: أضرار الشرك: ١ـ أنه السبب الأعظم في دخول النار والخلود فيها.

٢ـ أنه السبب الأعظم لحرمان الجنة. ٣ـ أنه السبب الأعظم لحبوط العمل.

٤ـ الشرك يطفئ نور الفطرة. ٥ـ هو أعظم سبب للشقاء في الدنيا.

٦ـ الشرك يقضي على عزة النفس، وعلى الأخلاق الفاضلة.

٧ـ سبب للفرقة والتناحر، وفقدان الأمن.

٨ـ سبب للتخلف في شـــتى الميادين. ٩ـ سبب للهزائم وتسلط الأعداء.

ثالثاً: نبذةٌ في التمائم

أولاً: تعريفها: التمائم جمع تميمة، وهي ما يُعَلَّق على الأعناق أو المراكب أو البيوت، أو غيرها؛ لجلب نفع، أو دفع ضر، أورفعه، سواء كانت من القرآن، أوالخيوط، أوالخرز، أوالحصى، أو غيرها.

ثانياً: أسماؤها الأخرى: للتمائم أسماء أخرى منها:

١ـ الحروز. ٢ـ الحجب.

٣ـ التعاليق. ٤ـ الودع.

ثالثاً: تحريم التمائم: التمائم محرمة بالكتاب والسنة، قال ـتعالىـ: [وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (الأنعام:١٧).

وقال ﷺ: «**من تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له، ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له**» رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

رابعاً: أسباب تحريمها: ١ـ لما فيها من تعلُّق القلب بغير الله.

٢ـ لأنها ليست سبباً شرعياً ولا قدرياً، واعتقادُ أنها سبب تشريعٌ مع الله، ومنازعة له في خلقه وأمره.

٣ـ أنها تفــتح على العبد باب الخرافة، وتقوده إلى الشرك.

٤ـ أنها سبب للخذلان؛ لأن من تعلق شيئاً وُكل إليه.

خامساً: هل التمائم من الشرك الأصغر أو من الأكبر؟ الجواب كما يلي:

١ـ إذا كانت التميمة صنماً، أو رقية شركية، أو صليباً ـ فهذا شرك أكبر

بلا ريب.

٢ــ إذا كانت من الخيوط، أو الخرز، أو نحوهما، واعتمد عليها العبد اعتماداً كلياً، وقام بقلبه أنها تؤثر بنفسها استقلالاً ــ فهذا أيضاً شرك أكبر.

٣ــ إذا كان من الخيوط، أو الخرز، ونحوهما، واعتقد أنها مجرد سبب، ولم يعتمد عليها اعتماداً كلياً ــ فهذا شرك أصغر.

سادساً: حكم المعلَّق إذا كان من القرآن أو الأدعية النبوية: الصحيح أنه لا يجوز للأسباب الآتية:

١ــ سداً للذرائع الموصلة للشرك.

٢ــ لعموم النهي في التمائم.

٣ــ لأنه قد يفضي إلى امتهان القرآن والأدعية النبوية، وذلك بالدخول بها في الخلاء، وبتعريضها للأوساخ.

٤ــ لأنه ذريعة للدجَّالين؛ كي يكتبوا آية أو سورة أو بسملة، ثم يضعوا تحتها طلاسم شيطانية واستغاثات شركية.

٥ــ لأنه قد يكون مدعاة لهجر القرآن، والدعاء؛ اكتفاءً بما عُلِّق.

سابعاً: نماذج للتمائم الموجودة: ١ــ ما يُعلَّق على الأطفال؛ خشية العين.

٢ــ ما تُعلِّقه بعض النساء، أو تضعه في غرفتها، أو تحت وسادتها؛ لاتقاء العين، أو للحفظ من الأذى أو لجلب محبة الزوج، ونحو ذلك.

٣ــ ما يعلق على السيارات من رسوم، أو خرز، أو غير ذلك؛ لدفع العين.

٤ــ ما يعرف بالدنبوشي عند بعض لاعبي الكرة؛ حيث يضعون على سواعدهم لفة معينة، أو يعلقونها على الشباك، وربما كان المعلق مشتملاً على آيات

قرآنية توضع تحت حذاء اللاعبين؛ زعماً منهم أن ذلك يجلب الفوز! كل ذلك من الأمور الشركية المحرمة.

رابعاً: نبذةٌ في التبرك

أولاً: تعريفه: التبرك هو طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر، وكلِّ ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه، بسبب ذات مباركة، أو زمان أو مكان مبارك، وتكون هذه البركة قد ثبتت ثبوتاً شرعياً، وثبتت الكيفية التي تنال بها عن النبي ﷺ.

ثانياً: قواعد عامة مجملة في التبرك: ١ــ أن البركة كلَّها من الله، كما أن الرزق، والنصر، والعافية من الله؛ فلا تطلب إلا من الله، وطلبها من غيره شرك.

٢ــ أن ما ورد شرعاً أن فيه بركةً من الأعيان، والأقوال، والأفعال إنما هو سبب للبركة، وليس هو مصْدَرَها.

٣ــ أن الذي يدل على وجود البركة من عدمها بسبب شيء أو في شيء إنما هو الدليل الشرعي فحسب.

ثالثاً: نماذج للتبرك المشروع: ١ــ التبرك بذات النبي ﷺ وآثاره.

٢ــ التبرك بالأفعال والأقوال، والهيئات المشروعة: فإذا جاء المسلم بها ملتمساً الخير بسببها، متبعاً السنة بفعلها ــ حصل له من الخير والبركة بقدر نيته واجتهاده.

ومن ذلك: ذكر الله، وقراءة القرآن، والاجتماع على الذكر، والتقدم في ساحات الوغى جهاداً في سبيل الله.

ومن ذلك: الاجتماع على الطعام، والأكل من جوانب القصعة، ولعق الأصابع بعد الانتهاء من الطعام.

٣ــ التبرك المشروع بالأمكنة: كالتبرك بالمساجد عموماً، وبالمسجد الحرام

والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ومسجد قباء خصوصاً، فلهذه المساجد مزيّة على غيرها.

والتبرك بالمساجد كالتبرك في غيرها لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة، فمما تحصل به البركة في المساجد الاعتكاف، والصلاة، والذكر، وغير ذلك.

ومن الأمكنة المباركة أيضاً: مكة، والمدينة، والشام.

٤_ التبرك بالأزمنة: مثل رمضان، وليلة القدر، وثلث الليل الآخر، والجمعة، والاثنين، والخميس، وعشر ذي الحجة.

٥_ التبرك بالمطعومات وما في حكمها: كالتبرك بزيت الزيتون، واللبن، والتمر، والحبة السوداء، والكمأة، وأكلة السَّحَر، وكالعسل، وماء زمزم.

ويلحق بما سبق: الخيل، والغنم؛ ففي تربيتها بركة.

وكل ما مضى وردت به الأدلة الشرعية، والمقام لا يتسع لبسطها.

وبالجملة فأعظم سبب للبركات هو الإيمان والتقوى [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ](الأعراف: ٩٦).

رابعاً: التبرك الممنوع: هو ما لم يرد فيه نص، أو ما ورد النص في النهي عن التبرك فيه، كالتبرك بالطواف بالقبور، ودعاء الأموات والغائبين، وكالتبرك بالأشجار، والأحجار، والغيران، وغيرها، وكالتبرك بذوات العلماء والصالحين؛ فإن هذا لا يجوز، وإنما تلتمس البركة بأخذ العلم عنهم، وبالاستفادة من سمتهم وهديهم.

المبحث الثالث: أنواع من السحر

هناك أعمال يمكن إلحاقها بالسحر لما بينهما من التشابه والاشتراك في ادعاء علم الغيب، أو سلوك الطرق المحرمة في الوصول إلى ذلك.

ومن أشهر تلك الأنواع: الكهانة والعرافة، والتنجيم، والطيرة، والخط على الرمل وما يلحق به.

وفيما يلي من صفحات بيان لتلك الأنواع، وما يتعلق بها من أحكام:

أولاً: الكهانة والعرافة

١ _ مفهوم الكهانة والعرافة: قيل: إنهما بمعنى واحد يطلقان على الحازي، والطبيبِ، وكلِّ مَنْ يتعاطى علماً دقيقاً.(١)

وقيل: إن الكاهن هو مَنْ يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار سواء كان له تابع من الجن، ورئيٌّ يلقي إليه الأخبار، أو كان ممن يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يُسْتَدَلُّ بها على مواقعها مِنْ كلامِ مَنْ يسأله، أو فعله، أو حاله.

وقيل: بل هذا الأخير هو العراف الذي يدعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالة، ونحوها.

وقيل: الكاهن مَنْ يخبر عن الغيب الماضي والمستقبل، والعراف من يخبر عن

---

١ _ انظر لسان العرب مادة (كهن)، ومادة (عرف) ٢٤٤/١٧_٢٤٥، و١٤٢/١١، والمصباح المنير ٥٣/٢.

الماضي.[١]

يقول ابن عابدين رحمه الله: «الكاهن قيل: هو الساحر، وقيل: هو العراف الذي يُحدِّث ويتخرص.

وقيل: مَنْ له مِنَ الجن مَنْ يأتيه بالأخبار».[٢]

٢_ وجه إلحاق الكهانة والعرافة بالسحر: ألحقت الكهانة والعرافة بالسحر لأمور، منها:

أ_ لكونهما مشابهين له من جهة الإخبار بما يخفى على الآخرين.

ب_ أن فيهما ادعاءً لعلم الغيب كحال السحر.

جـ _ أنهما سبيل لسلوك الطرق المحرمة للوصول إلى المغيبات.[٣]

د_ أنهما طريق لفتح باب الخرافة، والدجل، والتعلق بغير الله _جل وعلا_.

ثانياً: التنجيم

١_ مفهوم التنجيم: أ_ التنجيم في اللغة: مصدر الفعل: نَجَّمَ، مأخوذ من النجم، وهو الكوكب، وهو اسمُ علمٍ على الثريا.[٤]

والمنجم والمتنجم: الذي ينظر في النجوم، ويحسب مواقيتها وسيرها.[٥]

ب_ التنجيم في الاصطلاح: هو ادعاءُ معرفةِ أحكامِ النجوم المتعلقة بالعالم

---

١ _ انظر المفردات في غريب القرآن ص٤٤٢_٤٤٣، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبدالله ٤٠٦ و٤١١_٤١٢، وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن ص٣٨_٣٩، وأضواء البيان ٤/٤٥٥، والسحر بين الحقيقة والخيال ١٧٥_١٧٦.

٢ _ حاشية ابن عابدين ٤/٢٤٠ بتصرف يسير.

٣ _ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٧٦.

٤ _ انظر الصحاح للجوهري ٥/٢٣٩.

٥ _ انظر جمهرة اللغة لابن دريد ٢/١١٥.

السفلي، وتأثيرات النجوم فيه.[١]

وعرفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية، والقوابل الأرضية».[٢]

وعرفه ابن خلدون رحمه الله بقوله: «ما يزعمه أصحاب هذه الصناعة من أنهم يعرفون الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قِبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولِّدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية».[٣]

٢_ وجه إلحاق التنجيم بالسحر: دراسة هذا العلم من جهة معرفة خصائص الأجرام العلوية، وأبعادها، وحركاتها ليس داخلاً في موضوع السحر.

وإنما يدخل في السحر، وكونه أَحَدَ أنواعه من جهة سحر الذين كانوا يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور، والسعادة والنحوسة.

وهؤلاء هم الذين بعث الله لهم إبراهيم _عليه السلام_ مبطلاً لمقالتهم، وهؤلاء يعتقدون أن لهذه الكواكب إدراكاتٍ رُوحانيةً، إذا قوبلت بما يناسب روحانيتَها من البخور واللباس كانت مطيعةً لمن صنع ذلك، عاملةً له ما يريد.

---

١ _ انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٢/٣٥، وانظر التنجيم والمنجمون وحكمه في الإسلام للشيخ د.عبدالمجيد المشعبي وهو من أحسن ما كتب في هذا الباب ص٣١.

٢ _ انظر مجموع الفتاوى ١٩٢/٣٥.

٣ _ مقدمة ابن خلدون ص٥١٩_٥٢٠.

ولا شك بأن هذا الاعتقاد باطل، وشرك، وهو المنحى الذي يتوارثه السحرة؛ ليضللوا به الخلق، ويوحوا إليهم بأن هذه الأجرام العلوية تتصرف في العالم السفلي، وأنها فاعلة لما يحدث فيه.[1]

فهذا وجه إلحاق التنجيم بالسحر، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ما اقتبس رجل علماً من النجوم إلا اقتبس بها شعبة من السحر زاد ما زاد**».[2]

بمعنى أن هذا الاقتباس الذي يكون سحراً هو ما يدعيه المنجمون، ولا يمكن حمل الاقتباس على أنه إدراك علم صحيح عن أحوال النجوم؛ لأن معرفة صفاتها التي خلقها الله _تعالى_ عليها، وخصائصها التي هيأها لها _ ليست هي ما يعتقده السحرة فيها من كونها مؤثرةً، وعلةً تامةً تستلزم معلولها، بل الباطل المحذور هو ما يدعيه أولئك من الباطل الداعي إلى عبادة غير الله _تعالى_.

أما هي فبعض مخلوقات الله العليم الحكيم الذي لم يخلق شيئاً عبثاً، بل خلق العالم وَرَتَّبَه؛ فهو يسير بنظام محكم دقيق وَفْقَ ما أراد، فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، بحيث رُتِّبت فيه الأسباب، وربطت بمسبَّباتها، وخَالِقُها كلِّها هو الله _تعالى_.[3]

ملحوظة: هناك أمور يظنها بعض الناس من التنجيم، وهي ليست منه، كالعلم بحادثتي الكسوف والخسوف، فيمكن العلم بذلك بحساب النيِّرين كما

١ _ انظر أحكام القرآن للجصاص ٥٢/١_٥٤، وتفسر التحرير والتنوير ٦٣٥/١، و السحر بين الحقيقة والخيال ١٨٢_١٨٣.
٢ _ أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٧١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٣).
٣ _ انظر السحر بين الحقيقة والخيال ص١٨٣.

يعلم طلوع الهلال والبدر بحسابهما.

وكذلك توقع حالة الجو؛ فهو قائم على دراسة معينة، وبواسطة آلات خاصة بذلك، وقد تصيب تلك التوقعات، وقد تخطئ، ولكنها ليست من جنس أخبار المنجمين.[١]

ثالثاً: الطِّيرة

١ـ مفهوم الطيرة: أ ـ تعريف الطيرة لغة: الطيرة، والتطير بمعنىً واحد؛ فالتطير مصدر الفعل تطير يتطير، والطيرة اسم المصدر.

مثل تخير يتخير تخيراً، وخِيرةً، ويقال: تطيَّرت من الشيء، وبالشيء[٢].

ب ـ والطيرة في الاصطلاح هي: التشاؤم من الشيء المرئي، أو المسموع[٣].

والتشاؤم: هو عَدُّ الشيء مشؤوماً، أي يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر[٤].

جـ ـ اشتقاق الطيرة، وسبب تسميتها بذلك: الطيرة مشتقة من أحد أمرين:

إما من الطيران: فكأن الذي يرى ما يكره أو يسمع ـ يطير، كما قال بعضهم:

---

١ ـ انظر التنجيم والمنجمون ص٣٠٣ـ٣٢٠ و٣٢٥.

٢ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ٥١٢/٤ـ٥١٣.

٣ ـ انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٤٦/٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ٣٥٧/٣ـ٣٦٣.

٤ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٦٦/٥.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير[١]

وإما من الطير: وهذا هو الأصل، والمختار من الوجهين؛ إذ كانت العرب تزجر الطير والوحش، أي تُنَفِّرها، وترسلها، وتتفاءل أو تتشاءم بها.

فمن قال بالأول احتج بأن الوحش يُتطيَّر به، وزُجِرت مع الطير.

ومن قال بالقول الثاني قال: إنما كان الأصل في الطير، ثم صار في الوحش، وقد يجوز أن يُغَلَّب أحد الشيئين على الآخر؛ فيذكر دونه، ويرادان جميعاً، كما قيل:

ما يعيف اليوم في الطير الرَّوَح من غراب البين أو تيس برح

فجعل التيس من الطير؛ إذ قدم ذكر الطير، وجعله من الطير بمعنى التطير[٢].

---

١ _ هذا البيت يُنسب للشنفرى، ولتأبط شراً، ولغيرهما.

وبعض الناس يفهم هذا البيت بعكس معناه؛ فيظن أن القائل كاد يطير من شدة الفرح.

والصحيح أنه كاد يطير من الهم، والخوف بدليل أنه قال في البيت الذي يليه:

يرى الله أني للأنيس لكارهٌ وتبغضهم لي مقلة وضمير

وبدليل أن هذا البيت يُنسب لأحد الصعاليك إما الشنفرى، أو تأبط شراً، أو غيرهما.

ولا يخفى أن الصعاليك ذوو غارات، ومخاطرات، ورغبة في العيش في الصحارى، وإيثار للوحدة والبعد عن الناس كما قال الشنفرى في لامِيَّتِه:

ولي دونكم أهلون سَيدٌ عَمَلَّسٌ وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

أولئك لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخذلُ

ويقصد بالسِّيد العملس: الذئب القوي، والأرقط: النمر، والعرفاء: الضبع، يريد أن العيش مع تلك الحيوانات خيرٌ له من العيش مع البشر.

٢ _ انظر العمدة لابن رشيق القيرواني ٢/٢٥٩_٢٦٤.

فالتطير ــإذاًــ مأخوذ من الطير في الأصل، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في لحاق الشر، سواء كان مسموعاً، أو مرئياً، أو معلوماً، وسواء كان طيراً، أو حيواناً، أو جماداً، أو زماناً، أو مكاناً، أو شخصاً، أو نباتاً، أو عدداً، أو نحو ذلك.

ومما يدخل في مبحث الطيرةِ العيافةُ، وهي: مَصْدَرُ الفعل عاف يعيف، والمصدر عيافة.

والعيافة هي: زجر الطير، وتنفيرها، وإرسالها، والتفاؤل، أو التشاؤم بأسمائها، وأصواتها، وممراتها؛ فعن العيافة يكون الفأل، أو التشاؤم.

٢ــ وَجْهُ كونِ الطيرةِ من السحر: قال ــعليه الصلاة والسلامــ: «**إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت**»[1].

قال عوف: «**العيافة:** زجر الطير، **والطَرْق:** الخط في الأرض، **والجبت:** قال الحسن: إنه الشيطان».[2]

قيل في تفسير الجبت: هو كل ما عبد من دون الله، وقيل: هو الكاهن، والساحر، والسحر.[3]

قال الدكتور أحمد الحمد مبيناً وجه كون الطيرة من السحر من خلال

١ ــ أخرجه أبو داود(٣٩٠٧)، وحسنه إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧٠).

٢ ــ أبو داود(٣٩٠٨)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: «صحيح مقطوع».

٣ ــ انظر المفردات ص٨٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤٩/٥، ولسان العرب ٣٢٥/٢.

الحديث الماضي: «إن معاني الجبت كلها صادقة في العيافة، والطرق، والطيرة بحسب أحوالها، وكل تلك المعاني دالة على عِظَمِ جُرْم فاعلها.

فإن كانت سحراً فلها أحكامه، وما قيل فيه يقال فيها.

ولا شك بأن اعتقاد أن تلك الأفعال مُنْبِئَةٌ عن ما سيحصل من الغيب، أو أن هذا الفعل مباح _ كفرٌ، واعتقادَ أنها تجلب له النفع، أو تدفع عنه الضرر_ شرك، فهذا نوع عبادة لها.

وفاعل هذه الأمور، ومفسرها لنفسه أو للناس _ساحر، وإقدامه على الفعل تبعاً لذلك، أو امتناعه، أو طاعة غيره له _ عبادة لغير الله _تعالى_ لما صح عن رسول الله ﷺ أن الطيرة شرك، فقد روى أبو داود بسنده عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة شرك** «ثلاثاً» **وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**».[1]

وإن كان صاحب تلك الأعمال لا يعتقدها فهو كذب، وغش، وبهتان، ووسيلة إلى الشرك ممن قد يصدقه، وبحسب حاله يكون حكمه من الكفر،أو

١_ رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود، وأخرجه الحاكم في المستدرك١٧/١، وصححه، ووافقه الذهبي.

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله: «وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله _تعالى_.

وقال: «قوله: «**وما منا إلا**» قال أبو القاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمارٌ، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى؛ لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

قوله: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»: أي لما توكلنا على الله في جلب النفع، أو دفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده». انظر فتح المجيد ٥٢٣/٢_٥٢٤.

الفسوق والعصيان؛ فالفاسق من يتظاهر بتلك الأعمال كذباً من غير اعتقاد، ولا استعانة بالشياطين، وجعلِ تلك الأمور وسيلة ظاهرة يضلل بها.

والكافر هو فاعلها معتقداً إباحتها، أو صدقها ودلالتها، أو المستعين بالشياطين على كشف بعض الأمور، واتخاذ تلك وسيلة يخفي بها صُنْعَه».[1]

ومما يؤكد علاقة الطيرة بالسحر أن أهل الجاهلية كانوا يقصدون بالسؤال عن حوادثهم، وما أَمَّلوه مِنْ أعمالهم _ مَنِ اشْتُهِر عندهم بإحسان الزجر، والطيرة، وسموه عائفاً، وعرافاً.

وممن اشتهر بذلك عرَّاف اليمامة، والأبلق الأسدي، والأجلح، وعروة ابن يزيد، وغيرهم؛ فكان العرب يحكمون بذلك، ويعملون به، ويتقدمون، ويتأخرون في جميع ما يتقلبون فيه، ويتصرفون؛ في حال الأمن، والخوف، والسعة، والضيق، والحرب، والسلم؛ فإن أنجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه، وداوموا عليه، وإن عطبوا فيه تركوه وذموه.[2]

رابعاً: الخط على الرمل، وما يلحق به

الخط على الرمل: هو الطرق الوارد في قوله ﷺ: «**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**»[3].

وقد مضى وجه كونه ملحقاً بالسحر في الفقرة الماضية عند الحديث عن الطيرة.

---

١ _ السحر بين الحقيقة والخيال ص١٨١_١٨٢.

٢ _ انظر مفتاح دار السعادة ٢٢٩/٢_٢٣٠، وانظر تفصيل الكلام في الطِّيرة في رسالة الطيرة للمؤلف.

٣ _ مضى تخريجه.

وطريقة هذه الصناعة أن الذين يتعاطونها من المنجمين جعلوا من النقط والخطوط ستة عشر شكلاً، وميزوا كلاً منها باسم وشكل يختلف عن غيرها، وقسّموها إلى سعود ونحوس.

وشأنهم في ذلك شأنهم في الكواكب، ومسائل هذه الصناعة تخمينية يزعمون أنها مبنية على تجارب، ويربطونها بالنجوم، ويقولون: إن البروج الاثني عشر يقتضي كل منها شكلاً معيناً من الأشكال التي اصطلحوا عليها، وقالوا: إنه حين السؤال عن المطلوب تقتضي أوضاع البروج قوى الشكل المعين الذي يرسمه الرمّال على الرمل، وتلك الأشكال تدل على أحكام مخصوصة تناسب أوضاع البروج.[1]

ومما يدخل في علم الرمل، ويأخذ حكمه علم الأسارير، وهو علم باحث في الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر، وبحسب ما بينها من الفروج المتسعة، أو المتضايقة على أحوال الإنسان من طول الأعمار وقصرها، والسعادة والشقاوة، والغنى والفقر، وما شابه ذلك.

ويلحق به _أيضاً_ ما يسمى بقراءة الفنجان.[2]

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «وقد ظهر من أقواله ﷺ ومن تقريرات الأئمة من العلماء، وفقهاء هذه الأمة_ أن علم النجوم، والخط على الرمل، وما يسمى بالطالع، وقراءة الكف، وقراءة الفنجان، ومعرفة الخط، وما

---

١ _ انظر التنجيم والمنجمون ص٢٩٤.
٢ _ انظر التنجيم والمنجمون ص٣٠١.

أشبه ذلك كلها من علوم الجاهلية، ومن الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ومن أعمالهم التي جاء الإسلام بإبطالها، والتحذير من فعلها، أو إتيان من يتعاطاها وسؤاله عن شيء منها، أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك؛ لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به».[1]

١ _ مجلة البحوث العلمية عدد ٢٠ ص٧_١١.

المسألة الأولى: معنى البدعة في اللغة[1].

تأتي مادة (بدع) في اللغة على معنيين:

أحدهما: الشيء المخترع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ .

وجاء على هذا المعنى قول عمر ﷺ : "نعمت البدعة"[2] ، وقول غيره من الأئمة؛ كقول الشافعي: "البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة؛ فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم"[3].

قال ابن رجب: "وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر ﷺ لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج، ورآهم يصلون كذلك فقال: نعمت البد ة هذه"[4] .

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٠٦، ١٠٧ ومختار الصحاح: ٤٣، ٤٤ والمصباح المنير: ٣٨ والاعتصام: ١/٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري: ٤/٢٥٠ برقم ٢٠١٠ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٩/١١٣ .

(٤) جامع العلوم والحكم: ١/١٢٩ .

والمعنى الثاني: التعب والكلال، يقال: أبدعت الإبل، إذا بركت في الطريق من هزال أو داء أو كلال، ومنه قول الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبدع بي فاحملني فقال ما عندي فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله فقال رسول الله ﷺ : "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"(١) .

وهذا المعنى يرجع إلى المعنى الأول؛ لأن معنى أبدعت الإبل: بدأ بها التعب بعد أن لم يكن بها .

المسألة الثانية: معنى البدعة في الشرع .

وردت في السنة المطهرة أحاديث نبوية فيها إشارة إلى المعنى الشرعي للفظ **البدعة**، فمن ذلك:

١. حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وفيه: قوله ﷺ : (وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم: ١٣/٣٨-٣٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه؛ واللفظ له: ٤/٢٠١ برقم ٤٦٠٧ وابن ماجه: ١/١٥ برقم ٤٢ والترمذي: ٥/٤٤ برقم ٢٦٧٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم: ١٧ برقم ٢٧ .

٢.حديث جابر بن عبد الله ﷺ ، وفيه: أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: (إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)[1] .

وإذا تبيَّن بهذين الحديثين أن البدعة هي المحدثة استدعى ذلك أن يُنظر في معنى **الإحداث** في السنة المطهرة، وقد ورد في ذلك:

٣.حديث عائشة ﷺ وهو قوله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد)[2] .

٤.وفي رواية: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[3] .

هذه الأحاديث الأربعة إذا تؤملت وجدناها تدل على **حد البدعة وحقيقتها في نظر الشارع** .

ذلك أن للبدعة الشرعية **قيودا ثلاثة** تختص بها، والشيء لا يكون بدعة في الشرع إلا بتوفرها فيه، وهي:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في سننه: ١٨٨/٣ والحديث أصله في ١٥٣/٣ . وللاستزادة راجع كتاب خطبة الحاجة للألباني .

(٢) أخرجه البخاري: ٣٠١/٥ برقم ٢٦٩٧ ومسلم: ١٦/١٢ واللفظ له

(٣) أخرجه مسلم:١٦/١٢ .

١) الإحـــداث .

٢) أن يضـاف هـذا الإحـــداث إلى الديـــن .

٣) ألا يســتند هــذا الإحــداث إلى أصــل شــرعي؛ بطريـــق خــاص أو عــام .

وإليك فيما يأتي إيضاح هذه القيود الثلاثة:

١) الإحداث .

والدليل على هذا القيد قوله ﷺ : "من أحدث" وقوله: "وكل محدثة بدعة" .

والمراد بالإحداث: الإتيان بالأمر الجديد المخترع، الذي لم يسبق إلى مثله[1] . فيدخل فيه: كل مخترع، مذموما كان أو محمودا، في الدين كان أو في غيره .

---

(١) سواء في ذلك: ما أُحدث ابتداء أول مرة، إذ لم يسبقه مثيل؛ كعبادة الأصنام أول وجودها، وهذا هو الإحداث المطلق .
وما أُحدث ثانيا، وقد سُبق إلى مثله، ففُعل بعد اندثار؛ كعبـادة الأصنـام في مكة، فإن عمرو بن لحي هو الذي ابتدعها هنا لك، وهذا هو الإحـداث النسبي . ومنه: كل أُضيف إلى الدين وليس منه، كما دل على ذلك حديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهـو رد) فيسـمى محدثـا بالنسبة إلى الدين خاصة، وهو قد لا يكون محدثا بالنسبة إلى غير الدين .

وبهذا القيد خرج ما لا إحداث فيه أصلا؛ مثل فعل الشعائر الدينية كالصلوات المكتوبات، وصيام شهر رمضان، ومثل الإتيان بشيء من الأمور الدنيوية المعتادة كالطعام واللباس ونحو ذلك .

ولما كان الإحداث قد يقع في شيء من أمور الدنيا، وقد يقع في شيء من أمور الدين؛ تحتّم تقييد هذا الإحداث بالقيدين الآتيين:

٢) أن يضاف هذا الإحداث إلى الدين .

والدليل على هذا القيد قوله ﷺ : "في أمرنا هذا" . والمراد بأمره ها هنا: دينه وشرعه[١] .

فالمعنى المقصود في البدعة: **أن يكون الإحداث من شأنه أن يُنسب إلى الشرع ويضاف إلى الدين بوجه من الوجوه**، وهذا المعنى يحصل بواحد من أصول ثلاثة: الأصل الأول: التقرب إلى الله بما لم يشرع، والثاني: الخروج على نظام الدين، ويلحق بهما أصل ثالث، وهو الذرائع المفضية إلى البدعة .

وبهذا القيد تخرج المخترعات المادية والمحدثات الدنيوية مما لا صلة له بأمر الدين، وكذلك المعاصي والمنكرات التي استحدثت، ولم تكن من قبل، فهذه لا تكون بدعة، اللهم إلا إن فُعلت على وجه التقرب، أو كانت ذريعة إلى أن يظن أنها من الدين .

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم: ١/١٧٧ .

٣) ألا يستند هذا الإحداث إلى أصل شرعي؛ بطريق خاص ولا عام .

والدليل على هذا القيد: قوله ﷺ : "ما ليس منه" وقوله: "ليس عليه أمرنا" .

وبهذا القيد تخرج المحدثات المتعلقة بالدين مما له أصل شرعي، عام أوخاص، فمما أُحدث في الدين وكان مستندا إلى دليل شرعي عام: ما ثبت بالمصالح المرسلة؛ مثل جمع الصحابة ﷺ للقرآن، ومما أُحدث في هذا الدين وكان مستندا إلى دليل شرعي خاص: إحداث صلاة التراويح جماعة في عهد عمر ﷺ فإنه قد استند إلى دليل شرعي خاص . ومثله أيضاً إحياء الشرائع المهجورة، والتمثيل لذلك يتفاوت بحسب الزمان والمكان تفاوتا بيِّنا، ومن الأمثلة عليه ذكر الله في مواطن الغفلة .

وبالنظر إلى المعنى اللغوي للفظ الإحداث صحَّ تسمية الأمور المستندة إلى دليل شرعي محدثات؛ فإن هذه الأمور الشرعية اُبتدئ فعلها مرة ثانية بعد أن هُجرت أو جُهلت، فهو إحداث نسبي .

ومعلوم أن كل إحداث دل على صحته وثبوته دليل شرعي فلا يسمى ـ في نظر الشرع ـ إحداثا، ولا يكون ابتداعا، إذ الإحداث والابتداع إنما يطلق ـ في نظر الشرع ـ على ما لا دليل عليه .

وإليك فيما يأتي ما يقرر هذه القيود الثلاثة من كلام أهل العلم:

قال ابن رجب: "فكل من أحدث شيئا ونسبه إلى الدين، و لم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة، والدين منه بريء"[(١)]

وقال أيضاً: "والمراد بالبدعة: ما أُحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة"[(٢)].

وقال ابن حجر: "والمراد بقوله: (كل بدعة ضلالة) ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام"[(٣)].

وقال أيضاً: "وهذا الحديث [يعني حديث من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد] معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده؛ فإن من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه"[(٤)].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١٢٨/٢ .

(٢) المصدر السابق: ١٢٧/٢ .

(٣) فتح الباري: ٢٥٤/١٣ .

(٤) المصدر السابق: ٣٠٢/٥ . وانظر أيضاً معارج القبول: ٤٢٦/٢ وشرح لمعة الاعتقاد: ٢٣ .

التعريف الشرعي للبدعة:

يمكننا مما سبق تحديد معنى البدعة في الشرع بأنها ما جمعت القيود الثلاثة المتقدمة، ولعل التعريف الجامع لهذه القيود أن يقال: البدعة هي: "**ما أُحدث في دين الله، وليس له أصل عام ولا خاص يدل عليه**" .

أو بعبارة أوجز: "**ما أُحدث في الدين من غير دليل**" .

المسألة الثالثة: موازنة بين المعنى اللغوي للبدعة والمعنى الشرعي .

وذلك من وجهين:

١.أن المعنى اللغوي للبدعة أعم من المعنى الشرعي، فإن بينهما عموما وخصوصا مطلقا؛ إذ كل بدعة في الشرع داخلة تحت مسمى البدعة في اللغة، ولا عكس؛ فإن بعض البدع اللغوية ـ كالمخترعات المادية ـ غير داخلة تحت مسمى البدعة في الشرع[١] .

٢.أن البدعة بالإطلاق الشرعي هي: البدعة الواردة في حديث (كل بدعة ضلالة) دون البدعة اللغوية، ولذلك فإن البدعة الشرعية

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٥٩٠

موصوفة بأنها ضلالة، وأنها مردودة، وهذا الاتصاف عام لا استثناء فيه، بخلاف البدعة اللغوية فإنها غير مقصودة بحديث (كل بدعة ضلالة) فإن البدعة اللغوية لا يلازمها وصف الضلالة والذم، ولا الحكم عليها بالرد والبطلان .

المسألة الرابعة: العلاقة بين الابتداع والإحداث .

الابتداع والإحداث يردان في اللغة بمعنى واحد؛ إذ معناهما: الإتيان بالشيء المخترع بعد أن لم يكن .

وأما في المعنى الشرعي فقد **دلت الأحاديث الأربعة المتقدمة على أن للبدعة في الشرع اسمين: البدعة والمحدثة .**

إلا أن لفظ البدعة غلب إطلاقه على "الأمر المخترع المذموم، في الدين خاصة" .

وأما لفظ المحدثة فقد غلب إطلاقه على "الأمر المخترع المذموم، في الدين كان أو في غيره" .

وبهذا يعلم أن الإحداث أعم من الابتداع؛ لكون لفظ الإحداث شاملا لكل مخترع مذموم، في الدين كان أو في غيره، إذ يدخل في معنى

الإحداث: الإثم وفعل المعاصي، ومنه قوله ﷺ : "من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا"[1] قال ابن حجر: "أي أحدث المعصية"[2] .

وبذلك يتبين لنا أن لفظ المحدثة ـ بهذا النظر ـ متوسط بين معنيي البدعة في اللغة والشرع، فهو أخص من معنى البدعة في اللغة، وأعم من معناها في الشرع .

فتحصل لدينا ثلاثة معان:

١.الأمر المخترع، مذموما كان أو محمودا، في الدين كان أو في غيره .

٢.الأمر المخترع المذموم، في الدين كان أو في غيره .

٣.الأمر المخترع المذموم، في الدين خاصة .

فالأول عام، وهو المعنى اللغوي للبدعة وللمحدثة .

والثاني خاص، وهو المعنى الشرعي ـ الغالب ـ للمحدثة .

والثالث أخص، وهو المعنى الشرعي للبدعة، وهو ـ أيضاً ـ المعنى الشرعي الآخر للمحدثة .

---

(١) أخرجه البخاري: ٨١/٤ برقم ١٨٧٠ ومسلم: ١٤٠/٩ .
(٢) انظر فتح الباري: ٢٨١/١٣ .

المسألة الخامسة: العلاقة بين البدعة والسنة .

يأتي نظير لفظ البدعة ـ في هذين الإطلاقين: اللغوي والشرعي ـ لفظُ السنة، وبيان ذلك:

١. بالنظر إلى المعنى اللغوي:

تأتي السنة في اللغة بمعنى البدعة في اللغة؛ إذ السنة لغة بمعنى الطريقة؛ حسنة كانت أو سيئة، فكل من ابتدأ أمراً عمل به قومٌ من بعده قيل هو سنة[1] .

فالسنة والبدعة ـ في المعنى اللغوي ـ لفظان مترادفان .

ومن الأمثلة على ورود لفظ السنة بمعناه اللغوي قول الرسول ﷺ : (من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[2] .

٢. بالنظر إلى المعنى الشرعي:

تأتي السنة بالمعنى الشرعي في مقابل البدعة بالمعنى

(١) انظر المصباح المنير: ٢٩٢ .
(٢) أخرجه مسلم: ٧/١٠٢-١٠٤ .

الشرعي؛ إذ السنة شرعا هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه، والبدعة هي ما كان مخالفا لطريقة النبي ﷺ وأصحابه .

فالسنة والبدعة ـ في المعنى الشرعي ـ لفظان متقابلان، فمن ذلك:

قول النبي ﷺ :

(ما أحدث قوم **بدعة** إلا رفع مثلها من **السنة**، فتمسكٌ **بسنة** خير من إحداث **بدعة**)[1] .

وقوله ﷺ :

(فإن لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة؛ فإما إلى **سنة** وإما إلى **بدعة**، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)[2] .

المسألة السادسة: العلاقة بين البدعة والمعصية .

أ ـ وجوه اجتماع البدعة مع المعصية:

١. أن كلا منهما منهي عنه، مذموم شرعا، وأن الإثم يلحق فاعله، من هذا الوجه فإن البدع تدخل تحت جملة المعاصي[3] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١٠٥/٤ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١٥٨/٢ .

(٣) انظر الاعتصام: ٦٠/٢ .

وبهذا النظر فإن كل بدعة معصية، وليس كل معصية بدعة

٢. أن كـلا منهمـا متفـاوت، ليـس علـى درجـة واحـدة؛ إذ المعـاصي تنقسـم ـ باتفـاق العلمـاء ـ إلى مـا يكفَّـر بـه، وإلى كبـائر وإلى صغـائر[١] ، وكذلـك البدع؛ فإنهـا تنقسـم إلى مـا يُكفَّـر بـه، وإلى كبـائر، وإلى صغـائر[٢] .

٣. أنهما مؤذنان باندراس الشريعة وذهاب السـنة؛ فكلمـا كثرت المعاصي والبدع وانتشرت كلما ضعفت السـنن، وكلمـا قويـت السـنن وانتشرت كلما ضعفت المعاصي والبدع، فالبدعة والمعصية ـ بهذا النظر ـ مقترنان في العصف بالهدى وإطفاء نور الحق، وهما يسيران نحو ذلـك في خطين متوازيين . يوضح هذا:

٤. أن كـلا منهمـا منـاقض لمقـاصد الشـريعة، عـائد علـى الديـن بـالهدم والبطـلان .

---

(١) انظر الجواب الكافي: ١٤٥-١٥٠

(٢) وهذا التفاوت والانقسام إنما يصح إذا نُسب بعض البدع إلى بعـض، فيمكـن إذ ذاك أن تتفاوت رتبها، لأن الصغر والكبر من بـاب النسـب والإضافـات؛ فقد يكون الشيء كبيرا في نفسه لكنه صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه .
ولذا فإن صغار البدع ـ في ذاتها ـ تعد مـن الكبـائر ، وليسـت بصغـائر، وذلك بالنسبة لسائر المعاصي خـلا الشـرك . انظـر الاعتصـام: ٢/٥٧-٦٢ وسيأتي مزيد بيان لذلك في النقاط اللاحقة لهذه النقطة .

ب ـ وجوه الافتراق بين البدعة والمعصية:

١. تنفرد المعصية بأن مستند النهي عنها ـ غالبا ـ هو الأدلة الخاصة، من نصوص الوحي أو الإجماع أو القياس، بخلاف البدعة؛ فإن مستند النهي عنها ـ غالبا ـ هو الأدلة العامة، ومقاصد الشريعة، وعموم قوله ﷺ : (كل بدعة ضلالة)

٢. وتنفرد البدعة بكونها مضاهية للمشروع؛ إذ هي تضاف إلى الدين، وتلحق به، بخلاف المعصية فإنها مخالفة للمشروع، إذ هي خارجة عن الدين، غير منسوبة إليه، اللهم إلا إن فُعلت هذه المعصية على وجه التقرب، فيجتمع فيها ـ من وجهين مختلفين ـ أنها معصية وبدعة في آن واحد .

٣. وتنفرد البدعة بكونها جرما عظيما بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالتشريع؛ إذ حاصلها مخالفة في اعتقاد كمال الشريعة، ورمي للشرع بالنقص والاستدراك، وأنها لم تكتمل بعد، بخلاف سائر المعاصي؛ فإنها لا تعود على الشريعة بتنقيص ولا غض من جانبها، بل صاحب المعصية متنصل منها، مقر بمخالفته لحكمها .

٤. وتنفرد المعصية بكونها جرما عظيما بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالانتهاك؛ إذ حاصلها عدم توقير الله في النفوس بترك الانقياد

لشرعه ودينه، وكما قيل: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت)[1]، بخلاف البدعة؛ فإن صاحبها يرى أنه موقر لله، معظم لشرعه ودينه، ويعتقد أنه قريب من ربه، وأنه ممتثل لأمره، ولهذا كان السلف يقبلون رواية المبتدع إذا لم يكن داعية إلى بدعته، و لم يكن ممن يستحل الكذب، بخلاف من يقترف المعاصي فإنه فاسق، ساقط العدالة، مردود الرواية باتفاق .

٥. ولأجل ذلك أيضاً فإن المعصية تنفرد بأن صاحبها قد يُحدِّث نفسه بالتوبة والرجوع، بخلاف المبتدع؛ فإنه لا يزداد إلا إصرارا على بدعته لكونه يرى عمله قربة، خاصة أرباب البدع الكبرى كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ وقد قال سفيان الثوري: (البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها) وفي الأثر أن إبليس قال: (أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبـ"لا إله إلا الله" فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[2] .

(١) انظر الجواب الكافي: ٥٨، ١٤٩-١٥٠، والاعتصام: ٦٢/٢ .

(٢) انظر المصدرين السابقين .

٦.ولذلك فإن جنس البدعة أعظم من جنس المعصية، ذلك أن "فتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة"[1]، وهذا كله إنما يطرد ويستقيم إذا لم يقترن بأحدهما قرائن وأحوال تنقله عن رتبته .

ومن الأمثلة على هذه القرائن والأحوال: أن المخالفة ــ معصية كانت أو بدعة ــ تعظم رتبتها إذا اقترن بها المداومة والإصرار عليها أو الاستخفاف بها أو استحلالها أو المجاهرة بها أوالدعوة إليها، ويقل خطرها إذا اقترن بها التستر والاستخفاء أوعدم الإصرار عليها أو الندم والرجوع عنها .

ومن الأمثلة على هذه القرائن أيضاً: أن المخالفة في ذاتها تعظم رتبتها بعظم المفسدة، فما كانت مفسدته ترجع إلى كلي في الدين فهو أعظم مما كانت مفسدته ترجع إلى جزئي فيه، وكذلك: ما كانت مفسدته متعلقة بالدين فإنه أعظم مما كانت مفسدته متعلقة بالنفس .

والحاصل أن الموازنة بين البدع والمعاصي لابد فيها من مراعاة الحال والمقام، واعتبار المصالح والمفاسد، والنظر إلى مآلات الأمور؛ فإن التنبيه على خطورة البدع والمبالغة في تعظيم

(١) الجواب الكافي: ٥٨ وانظر مجموع الفتاوى: ١٠٣/٢٠ .

شأنها ينبغي ألا يفضي ـــ في الحال أو المآل ـــ إلى الاستخفاف بالمعاصي والتحقير من شأنها، كما ينبغي أيضاً ألا يفضي التنبيه على خطورة المعاصي والمبالغة في تعظيم شأنها ـــ في الحال أو المآل ـــ إلى الاستخفاف بالبدع والتحقير من شأنها .

المسألة السابعة: العلاقة بين البدعة والمصلحة المرسلة[1].

أ ـ وجوه اجتماع البدعة والمصلحة المرسلة:

١ . أن كلا من البدعة والمصلحة المرسلة مما لم يعهد وقوعه في عصر النبوة، ولا سيما المصالح المرسلة، وهو الغالب في البدع إلا أنه ربما وجدت بعض البدع ـ وهذا قليل ـ في عصره ﷺ ؛ كما ورد ذلك في قصة النفر الثلاثة الذين جاءوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ .

٢ . أن كلا من البدعة ـ في الغالب ـــ والمصلحة المرسلة خال عن الدليل الخاص المعين، إذ الأدلة العامة المطلقة هي غاية ما يمكن الاستدلال به فيهما .

ب ـ وجوه الافتراق بين البدعة والمصلحة المرسلة:

١ . تنفرد البدعة في أنها لا تكون إلا في الأمور التعبدية، وما يلتحق

---

(١) انظر الاعتصام: ٢/١٢٩-١٣٥ والإبداع للشيخ علي محفوظ: ٨٣-٩٢ .

بخلاف المصلحة المرسلة؛ فإنها ـ لكي تعتبر شرعا ـ لابد أن تندرج تحت مقاصد الشريعة، وأن تكون خادمة لها، وإلا لم تعتبر .

٥. وتنفرد المصلحة المرسلة بأن عدم وقوعها في عصر النبوة إنما كان لأجل انتفاء المقتضي لفعلها، أو أن المقتضي لفعلها قائم لكن وجد مانع يمنع منه، بخلاف البدعة فإن عدم وقوعها في عهد النبوة كان مع قيام المقتضي لفعلها، وتوفر الداعي، وانتفاء المانع .

والحاصل: أن المصالح المرسلة إذا روعيت شروطها كانت مضادة للبدع، مباينة لها، وامتنع جريان الابتداع من جهة المصلحة المرسلة؛ لأنها ـ والحالة كذلك ـ يسقط اعتبارها ولا تسمى إذ ذاك مصلحة مرسلة، بل تسمى إما مصلحة ملغاة أو مفسدة .

المسألة الثامنة: خصائص البدعة .

بنظرة فاحصة في القيود الثلاثة الواردة في المعنى الشرعي للبدعة يمكننا استخراج سمات البدعة وخصائصها، تلك الخصائص التي تفترق بها البدعة عما يشتبه بها ويقترب منها . وهي أربع خصائص:

الأولى: أنه لا يوجد في النهي عن البدعة ـ غالبا ـ دليل خاص[1]، وإنما يستدل على النهي عنها والمنع منها بالدليل الكلي العام .

---

(١) يستثنى من ذلك البدع التي نُهي عنها بأعيانها، وهي قليلة جدا . انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٥٨٦-٥٨٧ .

الثانية: أن البدعة لا تكون إلا مناقضة لمقاصد الشريعة، هادمة لهـا، وهذا هو الدليل الكلي على ذمها وبطلانها، ولأجـل ذلـك وُصفـت في الحديث بأنها ضلالة .

الثالثة: أن البدعة ـ في الغالب ـ إنما تكون بفعل أمـور لم تعـرف في عهده ﷺ ولا في عهد صحابته ﷺ .

قال ابن الجوزي: "البدعة: عبارة عن فعلٍ لم يكن؛ فأُبتُدِع"[1] .

ولذا سميت البدعة بدعة؛ فإن البدعة في اللغة: الشيء الذي أحـدث على غير مثال سواء كان محمـودا أو مذمومـا، ومـن هـذا الوجـه أطلـق بعض السلف لفظ البدعة على كل أمر ـ محمـودا كـان أو مذمومـا ـ لم يحدث في عهده ﷺ ، كما ورد ذلك عن الإمام الشافعي .

الرابعة: أن البدعة مشابهة ولابد للأمور الشرعية ملتبسة بها

بيان ذلك: أن البدعة تحاكي المشروع وتضاهيه من جهتين:

١. من جهة مستندها؛ إذ البدعة لا تخلو من شبهة أو دليل موهوم، فهي تستند إلى دليل يظن أنه دليل صحيح[2]، كما أن العبادة المشـروعة تستند ولابد إلى دليل صحيح .

---

(١) تلبيس إبليس: ١٦ .

(٢) وهذا الدليل لا يخلو أن يكون واحدا من نوعين: إمـا أدلـة عامـة مطلقـة، أو أدلة خاصة واهية .

٢. من جهة هيئة العبادة المشروعة وصفتها؛ من حيث الكم أو الكيف أو الزمان أو المكان، أو من حيث الإلزام بها، وجعلها كالشرع المحتَّم .

ذكر أمور لا تشترط في البدعة:

من المستحسن بعد بيان خصائص البدعة التنبيه على أمور قد يظن أنها من خصائص البدعة وليست كذلك، فمن ذلك:

١) لا يشترط في البدعة ألا يوجد لها بعض الفوائد، بل قد توجد لبعض البدع بعض الفوائد، إذ ليست البدع من قبيل الباطل الخالص الذي لا حق فيه، ولا هي من الشر المحض الذي لا خير فيه .

وهذه الفوائد التي قد توجد في بدعة من البدع لا تجعلها مشروعة، ذلك لأن الجانب الغالب في البدعة هو المفسدة، وأما جانب الفائدة والمنفعة فهو مرجوح؛ فلا ينبى عليه ولا يلتفت إليه .

قال ابن تيمية: "**بل اليهود والنصارى يجدون في عباداتهم أيضاً فوائد، وذلك لأنه لابد أن تشتمل عبادتهم على نوع ما، مشروع من جنسه، كما أن أقوالهم لابد أن تشتمل على صدق ما، مأثور عن الأنبياء ثم مع ذلك لا يوجب ذلك أن نفعل عباداتهم أو نروي كلماتهم .**

لأن جميع المبتدعات لابد أن تشتمل على شر راجح على ما فيها من الخير، إذ لو كان خيرها راجحا لما أهملتها الشريعة .

فنحن نستدل بكونها بدعة على أن إثمها أكبر من نفعها، وذلك هو الموجب للنهي، وأقول: **إن أثمها قد يزول عن بعض الأشخاص** لمعارض: لاجتهاد أو غيره"[1] .

٢) لا يشترط في البدعة أنْ تُفعل على وجه المداومة والتكرار، بل إن الشيء قد يُفعل مرة واحدة دون تكرار ويكون بدعة، وذلك كالتقرب إلى الله بفعل المعاصي أو بالعادات .

٣) لا يشترط في البدعة أن تُفعل مع قصد القربة والتعبد، بل إن الشيء ربما كان بدعة دون هذا القصد، فلا يشترط ـ مثلا ـ قصد القربة في البدع الحاصلة من جهة الخروج على نظام الدين؛ كالتشبه بالكافرين، ولا في الذرائع المفضية إلى البدعة، إلا أن غالب البدع ـ خاصة في باب العبادات ـ تجري من جهة قصد القربة .

٤) لا يشترط في البدعة أن يتصف فاعلها بسوء المقصد وفساد النية، بل قد يكون المبتدع مريدا للخير، ومع ذلك فعمله يوصف بأنه

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٦٠٩-٦١٠، ٧٥٩ .

بدعة ضلالة، كما ورد ذلك في أثر ابن مسعود ﷺ حيث قال: "وكم من مريد للخير لن يصيبه"(١).

٥) لا يشترط في البدعة أن تخلو عن دلالة الأدلة العامة عليها، **بل قد تدل الأدلة العامة المطلقة على شرعها من جهة** العموم، ولا يكون ذلك دليلا على مشروعيتها من جهة الخصوص؛ إذ أن ما شرعه الله ورسوله ﷺ بوصف العموم والإطلاق لا يقتضي أن يكون مشروعا بوصف الخصوص والتقييد، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ فإنه لا يقتضي بعمومه مشروعية الأذان للعيدين على وجه الخصوص .

* * *

---

(١) قال ذلك ﷺ حين رأى قوما في المسجد يجلسون حلقا، وفي كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مئة . أخرجه الدارمي في سننه: ١/٦٨-٦٩ .

الأصل الثاني: الخروج على نظام الدين .

ويندرج تحت هذا الأصل ثمان قواعد كلية

بيان ذلك:

أن الانقياد والخضوع لدين الله يحصل بالتسليم التام لهذا الدين في أصوله وفي أحكامه .

أما التسليم التام لهذا الدين **في أصوله فمخالفته** تحصل بإحداث أصول واعتقادات؛ إما لكونها معارضة لنصوص الوحي، أو لكونها غير مأثورة في هذه النصوص، ويلحق بذلك: أن تجعل أصول هذا الدين محل جدل وخصومة مما يفضي ــ في الغالب ــ إلى الاعتراض عليها، فهذه ثلاث قواعد كلية تتعلق بأصول الدين .

وأما التسليم التام لهذا الدين **في أحكامه فمخالفته** تحصل بإحداث أحكام وشرائع إما لكونها تغييراً وتبديلا لبعض شرائع الدين المقررة، وإما لكونها زيادة واستدراكاً على أحكام الله وشرعه بحيث يُفرض على الناس اتباعها والالتزام بها، فهاتان قاعدتان كليتان تتعلقان بأحكام هذا الدين، فتحصل مما سبق خمس قواعد كلية

ومن مقتضيات التسليم التام لهذا الدين ترك مشابهة أعدائه الكافرين، **ومخالفة هذا المقتضى تحصل** بمشابهتهم؛ إما في خصائصهم العبادية والعادية، وإما في غير خصائصهم من المحدثات التي استحدثوها، ويلحق بمشابهة الكافرين الإتيان بشيء من أعمال الجاهلية، فهذه ثلاث قواعد كلية .

وإليك فيما يأتي بيان هذه القواعد:

القاعدة الحادية عشرة (١١)

كل ما كان من الاعتقادات والآراء والعلوم معارضا لنصوص الكتاب والسنة، أومخالفا لإجماع سلف الأمة فهو بدعة[١] .

ومما يدخل تحت هذه القاعدة الصور الثلاث الآتية:

الصورة الأولى: اتخاذ الرأي أصلا مُحْكما وجعله مقطوعا به، وعرْض النصوص السمعية على هذا الأصل، فما وافقه قُبل، وما خالفه رُدَّ . وهذا متضمن إما للتفويض أوللتأويل أو للتعطيل .

قال ابن تيمية: "فأما معارضة القرآن بمعقول أو قياس فهذا لم يكن يستحله أحد من السلف .

وإنما أُبْتُدع ذلك لما ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن بنوا أصول دينهم على ما سموه معقولا وردوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تعارض العقل والشرع إما أن يفوض أو يتأول، فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطان أتاهم"[٢] .

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٠٥٢ ودرء التعارض: ٢٠٨/١، ٢٠٩ وإعلام الموقعين: ٦٧/١ والاعتصام: ١٠١/١-١٠٦ وفضل علم السلف على علم الخلف: ٣٩-٤٤ وأحكام الجنائز: ٢٤٢ .

(٢) الاستقامة: ٢٣/١ .

وقال ابن أبي العز: "بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولا، فما وافقه قال: إنه محكم، وقبله واحتج به، وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم ردّه، وسمى ردَّه تفويضا، أو حرَّفه، وسمى تحريفه تأويلا، فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم"[1] .

والرأي المعارض للنصوص يكون تارة في مسائل الاعتقاد وأصول الدين، ويكون تارة أخرى في أصول الفقه وقواعده وفروعه .

فمن النوع الأول:

البدع المحدثة في الاعتقاد كرأي جهم وغيره من أهل الكلام؛ لأنهم قوم استعملوا قياساتهم وآراءهم في رد النصوص[2]

قال الذهبي[3]: "فأول ذلك بدعة الخوارج حتى قال أولهم للنبي ﷺ : (اعدل)[4] .

فهؤلاء يصرحون بمخالفة السنة المتواترة ويقفون مع الكتاب فلا يرجمون الزاني ولا يعتبرون النصاب في السرقة، فبدعتهم تخالف السنة المتواترة" .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٩٩ .
(٢) انظر إعلام الموقعين: ١/٦٨ .
(٣) انظر كلام الذهبي كله في التمسك بالسنن له:١٠١-١٠٤ .
(٤) أخرجه البخاري: ٦/٦١٧ برقم ٣٦١٠ .

وقال: "ثم ظهر في حدود السبعين بدعة القدر؛ كذبوا بالعلم أوبالمشيئة العامة، وذلك مخالف للكتاب والسنة" .

وقال: "ثم وجدت بدعة الجهمية والكلام في الله فأنكروا الكلام والمحبة وأن يكون كلّم موسى أو اتخذ إبراهيم خليلا أو أنه على العرش استوى، وذلك مخالف للنصوص" .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً:

أن بعض الطوائف يردون الأحاديث "التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدَّعون أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية على مقتضى الدليل؛ فيجب ردها: كالمنكرين لعذاب القبر، والصراط، والميزان، ورؤية الله عز وجل في الآخرة .

وكذلك حديث الذباب وقتله، وأنَّ في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، وأنه يقدم الذي فيه الداء، وحديث الذي أخذ أخاه بطنه فأمره النبي ﷺ بسقيه العسل، وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول"[1] .

ومن النوع الثاني:

القواعد والضوابط المحدثة في الفقه وأصوله المتضمنة رد نصوص الوحي إليها .

---

(١) الاعتصام: ٢٣١/١ .

ومن الأمثلة على ذلك:

أ) القول بالتحسين والتقبيح العقليين[1] .

ب) الاقتصار على كتاب الله وإنكار العمل بالسنة مطلقا[2] .

ج) القول بترك العمل بخبر الواحد[3] .

د) ما ذكره الشاطبي، إذ قال: "وربما قدحوا في الرواة من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم - وحاشاهم - وفيمن اتفق الأئمة من المحدثين على عدالتهم وإمامتهم .

كل ذلك ليردوا به على من خالفهم في المذهب .

وربما ردوا فتاويهم وقبّحوها في أسماع العامة؛ لينفّروا الأمة عن اتباع السنة وأهلها"[4] .

هـ) ما ذكره ابن رجب، إذ يقول: "ومن ذلك – أعني محدثات العلوم - ما أحدثه فقهاء الرأي من ضوابط وقواعد عقلية ورد فروع الفقه إليها سواء أخالفت السنة أم وافقتها طردا لتلك القواعد المقررة،

---

(١) انظر الاعتصام: ١/١٤٤، ٢/٩٩ والإبداع للشيخ علي محفوظ: ٦١ .

(٢) انظر الاعتصام: ١/١٠٩-١١٠ والإبداع للشيخ علي محفوظ: ٦١، ٦٢ .

(٣) انظر المصدر السابق: ١/١٠٩، ٢٣٢-٢٣٦، ٢/٩٩ والإبداع للشيخ علي محفوظ: ٦٢، ٦٣ .

(٤) الاعتصام: ١/٢٣١-٢٣٢ . وانظر منه: ١/٢٤٦-٢٤٨ .

وإن كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب والسنة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها"[١] .

الصورة الثانية: الإفتاء في دين الله بغير علم .

قال الشاطبي: "فكل من اعتمد على تقليد قول غير محقق، أو رجح بغير معنى معتبر فقد خلع الربقة واستند إلى غير شرع عافانا الله من ذلك بفضله .

فهذه الطريقة في الفتيا من جملة البدع المحدثات في دين الله تعالى كما أن تحكيم العقل على الدين مطلقا محدث"[٢]

وقال أيضاً: "زيادة إلى القول بالرأي غير الجاري على العلم، وهو بدعة أو سبب إلى البدعة...

وهو الذي بيَّنه النبي ﷺ بقوله: (حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[٣] وإنما ضلوا لأنهم أفتوا بالرأي، إذ ليس عندهم علم"[٤] .

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف: ٤٧ .

(٢) الاعتصام: ١٧٩/٢ .

(٣) أخرجه البخاري: ١٩٤/١ برقم ١٠٠ ومسلم: ٢٢٣/١٦-٢٢٥ وقد تقدم

(٤) الاعتصام: ٨١/٢ .

ويقرب من هذه الصورة:

. **الصورة الثالثة، وهي**: استعمال الرأي في الوقائع قبل أن تنزل، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات؛ لأن في الاشتغال بهذا تعطيلا وتركا للسنن وذريعة إلى جهلها[1] .

وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

قد نقَّر الناس حتى أحدثوا بدعا
في الدين بالرأي لم تبعث بها الرسل

حتى استخف بدين الله أكثرهم
وفي الذي حُمِّلوا من دينه شغل

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة خاصة بالاعتقادات والآراء والعلوم التي أُحدثت في دين الإسلام من جهة أهله الذين ينتسبون إليه، فلا يدخل تحت هذه القاعدة ـ بهذا النظر ـ اعتقادات الملاحدة والكافرين وآراؤهم وعلومهم وإن كانت معارضة لدين الإسلام .

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٠٥٤ وإعلام الموقعين: ٦٩/١ والاعتصام: ١٠٣/١، ١٠٤ ٣٣٥/٢ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٩٥٠/٢ .

وبيان هذه القاعدة مرتبط بمعرفة أصل عظيم من أصول هذا الدين، ألا وهو وجوب التسليم التام للوحي وعدم الاعتراض عليه .

قال ابن تيمية: "... فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع: الكتاب والسنة والإجماع، فإن هذا حق لا باطل فيه، واجب الاتباع، لا يجوز تركه بحال ... وليس لأحد الخروج عن شيء مما دلت عليه"[1] .

والمعارضة لما جاء به الوحي تشمل: معارضته بالآراء والمعتقدات، **وبالأقوال وبالأعمال**

وهذه القاعدة متعلقة ببيان معارضة الوحي بالاعتقادات والآراء والأقوال، أما ما يتعلق بمعارضته بالأعمال فسيأتي بيانه في القاعدتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة .

وإليك فيما يأتي كلام بعض أهل العلم في تقرير هذه القاعدة:

قال الشافعي: "والبدعة: ما خالف كتابا أو سنة أو أثرا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ "[2] .

وقال ابن تيمية: "وما خالف النصوص فهو بدعة باتفاق المسلمين"[3] .

وقال الشاطبي: "والرأي إذا عارض السنة فهو بدعة وضلالة"[4] .

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/٥ .

(٢) إعلام الموقعين: ١/٨٠ .

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٠/١٦٣ .

(٤) الاعتصام: ٢/٣٣٥ .

القاعدة الثانية عشرة (١٢)

ما لم يرد في الكتاب والسنة ولم يؤثر عن الصحابة ﷺ والتابعين من الاعتقادات فهو بدعة[١] .

ومما يدخل تحت هذه القاعدة ما يأتي:

١) علم الكلام[٢] .

فقد نقل ابن عبد البر **الإجماع على أن أهل الكلام مبتدعة** فقال:

"أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم"[٣] .

---

(١) انظر أحكام الجنائز: ٢٤٢ .

(٢) المراد بالكلام الذي ذمَّه أئمة السلف ونهوا عن الخوض فيه: الكلام في الدين على غير طريقة المرسلين .

ومن هنا أمكن تعريف علم الكلام بأنه: إثبات أمور العقائد بالأدلة العقلية والطرق الجدلية مع الإعراض عما في القرآن والسنة من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين .

انظر مجموع الفتاوى: ١١/٣٣٥-٣٣٦، ١٢/٤٦٠-٤٦١، ١٩/١٦٣ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ٢/٩٤٢ .

وإليك فيما يأتي شذ ات من أقوال أئمة السلف تقرر ذلك:

قال مالك: "لو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل"[1] .

وقال أحمد: "وكل من أحدث كلاما لم يكن آخر أمره إلا إلى بدعة؛ لأن الكلام لا يدعو إلى خير"[2] .

وقال البربهاري: "وما كانت قط زندقة ولا بدعة ولا هوى ولا ضلالة إلا من الكلام والجدال والمراء والقياس .

وهي أبواب البدع والشكوك والزندقة"[3] .

وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: إن فلانا صنَّف كتابا يرد فيه على المبتدعة . قال: بأي شيء ؟ بالكتاب والسنة ؟ قال: لا . لكن بعلم المعقول والنظر . فقال: أخطأ السنة، وردَّ بدعة ببدعة"[4] .

وعلم الكلام يشمل المسائل والدلائل، والابتداع حاصل فيهما .

قال ابن أبي العز: "وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويعرضون عن الأمر المشروع"[5] .

---

(١) صون المنطق والكلام: ٥٧ والأمر بالاتباع: ٧٠ .

(٢) الإبانة الكبرى: ٥٣٩/٢ .

(٣) شرح السنة: ٥٥ .

(٤) صون المنطق والكلام: ١٣١ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية: ٥٩٣ .

أ. فمن المسائل المبتدعة: القول بأن أول واجب على المكلف هو النظر أو القصد إلى النظر[1] .

ب. ومن الدلائل المبتدعة: الاستدلال بطريقة الأعراض وحدوثها على إثبات الصانع[2] .

٢) الطرق الصوفية .

ذلك أن الصوفية "في كثير من الأمور يستحسنون أشياء لم تأت في كتاب ولا سنة، ولا عمل بأمثالها السلف الصالح، فيعملون بمقتضاها، ويثابرون عليها، ويُحَكِّمونها طريقا لهم مهيعا، وسنة لا تخلف، بل ربما أوجبوها في بعض الأحوال"[3] .

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاطبي حيث يقول:

"ومن ذلك: أشياء ألزموها المريد حالة السماع، من طرح الخرق، وإن من حق المريد ألا يرجع في شيء خرج منه البتة، إلا أن يشير عليه الشيخ بالرجوع فيه، فليأخذه على نية العارية بقلبه، ثم يخرج عنه بعد ذلك من غير أن يوحش قلب الشيخ، إلى أشياء اخترعوها في ذلك لم يعهد مثلها في الزمان الأول"[4] .

---

(١) انظر المصدر السابق: ٧٤-٧٥ .

(٢) انظر درء التعارض: ٣٠٨-٣١٠

(٣) الاعتصام: ٢١٢/١ .

(٤) الاعتصام: ٢١٦/١ .

قال ابن رجب: "ومما أحدث من العلوم: الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم . وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره "(١) .

٣) ا لتعرض للألفاظ المجملة بالإثبات أو النفي بإطلاق . كلفظ (الجهة) و(الجسم) و(العرض) .

وقال ابن تيمية: "فلم ينطق أحد منهم [أي السلف] في حق ا لله بالجسم لا نفيا ولا إثباتا، ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك؛ لأنها عبارات مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا... بل هذا هو من الكلام المبتدع الذي أنكره السلف والأئمة"(٢) .

أما طريقة السلف في التعامل مع الألفاظ المجملة فقد بيَّنها ابن أبي العز بقوله: "والألفاظ التي ورد بها النص يُعتصم بها في الإثبات والنفي: فنثبت ما أثبته ا لله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني .

وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف: ٦١ وانظر مجموع الفتاوى: ١٥/١١

(٢) مجموع الفتاوى: ٨١/٣ .

يُنظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحا قُبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند **الحاجة**، مع **قرائن** تبين المُراد .

والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطَب بها، ونحو ذلك"[1] .

وبهذا يعلم أن من"السنة اللازمة: السكوتَ عما لم يرد فيه نص عن الله ورسوله أو يتفق عليه المسلمون على إطلاقه، وتركَ التعرض لها بنفي أو إثبات، فكما لا يُثبت إلا بنص شرعي فكذلك لا يُنفى إلا بدليل سمعي"[2]

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة خاصة بأمور العقيدة التي لم يرد ذكر لها في نصوص الكتاب والسنة، واتفق الصحابة والتابعون على ترك الكلام عليها .

وهي صنو القاعدتين: الثالثة والرابعة الخاصتين بالعبادات التي لم ينقل فعلها عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة أو التابعين .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٢٣٩ وانظر منه: ١٠٩-١١٠ .
(٢) عقيدة الحافظ عبد الغني: ١١٣ .

ولهذه القاعدة أهمية بالغة في إبطال البدع والرد على أهلها، حيث اعتمد أئمة السلف ـ كثيرا ـ على هذه القاعدة في مناظراتهم للمبتدعة والرد عليهم .

فمن ذلك: أن الإمام الشافعي قال لبشر المريسي: (أخبرني عما تدعو إليه؟ أكتاب ناطق وفرض مفترض وسنة قائمة ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال) فقال بشر: (لا إلا أنه لا يسعنا خلافه) فقال الشافعي: (أقررت بنفسك على الخطأ . . .)[1] .

وقال الإمام أحمد لابن أبي دؤاد يسأله: (خبِّرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه: أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ) قال: (لا ...) قال: (ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه؛ فإن قلتَ علموه وسكتوا عنه وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلتَ: جهلوه وعلمتَه أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون ﷺ شيئا وتعلمه أنت وأصحابك)[2] .

وإليك فيما يأتي ما يقرر هذه القاعدة من كلام أهل العلم:

١.قال سعيد بن جبير: "ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين"[3] .

---

(١) انظر صون المنطق والكلام: ٣٠ .

(٢) انظر الشريعة: ٦٣ .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: ٧٧١/١ برقم ١٤٢٥ وانظر مجموع الفتاوى: ٥/٤ وقد تقدم .

٢.قال مالك بن أنس: "إياكم والبدع، فقيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان"(١) .

٣.قال الشافعي: "كل من تكلم بكلام في الدين أو في شيء من هذه الأهواء ليس له فيه إمام متقدم من النبي ﷺ وأصحابه فقد أحدث في الإسلام حدثا"(٢) .

٤.قال بعض السلف: "ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه بدعة"(٣) .

٥.قال البربهاري: "واعلم أن الناس لو وقفوا عند محدثات الأمور، ولم يجاوزوها بشيء، ولم يولدوا كلاما مما لم يجئ فيه أثر عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه لم تكن بدعة"(٤) .

---

(١) أخرجه قوام السنة في الحجة في بيان المحجة: ١/١٠٣-١٠٤ وانظر شرح السنة للبغوي: ١/٢١٧ والعين والأثر: ٦١ والأمر بالاتباع: ٧٠ وصون المنطق والكلام: ٥٧ .

(٢) صون المنطق والكلام: ١٥٠ .

(٣) صون المنطق والكلام: ١٣١ .

(٤) شرح السنة: ٤٦ .

القاعدة الثالثة عشرة (١٣)

الخصومة والجدال والمراء في الدين بدعة .

ومما يدخل تحت هذه القاعدة ما يأتي:

١) السؤال عن المتشابهات .

ومن الأمثلة على ذلك: **قصة صبيغ** الذي كان يسأل عن المتشابهات، فلما بلغ عمر ﷺ ذلك أمر به فضُرب ضربا شديدا، وبَعث به إلى البصرة، وأمرهم ألا يجالسوه، فكان بها كالبعير الأجرب: لا يأتي مجلسا إلا قالوا: (عزمة أمير المؤمنين) فتفرقوا عنه، حتى تاب وحلف بالله ما بقي يجد مما كان في نفسه شيئا، فأذن عمر في مجالسته، فلما خرجت الخوارج أُتي، فقيل له: هذا وقتك . فقال: لا، نفعتني موعظة العبد الصالح[1] .

ومن ذلك أيضاً: **ما ورد عن الإمام مالك** لما جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟

فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ٣/٤، ٤ . والأثر أخرجه الدارمي: ١/٥٤، ٥٥ وابن بطة في الإبانة الكبرى: ١/٤١٤-٤١٥ برقم ٣٢٩-٣٣٠ .

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ فإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأُخرج[1] .

قال ابن تيمية: "لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر ولا يمكنهم الإجابة عنه"[2] .

وقال أيضاً: "هذا الجواب من مالك رحمه الله في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات، مثل النزول والمجيء واليد والوجه وغيرها"[3] .

ومعلوم أن أسماء الله وصفاته وأفعاله من جهة كيفيتها من المتشابه الذي يجب الإيمان به والكف عن الخوض فيه، كما قال تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ .

٢) امتحان المسلمين بما ليس في الكتاب والسنة من المسائل والآراء .

---

(١) أخرجه اللالكائي في السنة: ٤٤١/٣ برقم ٦٦٤ وقال ابن حجر: "وأخرج البيهقي بسند جيد ..." فتح الباري: ٤٠٦/١٣-٤٠٧ وقال ابن تيمية: "وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه" مجموع الفتاوى: ٣٦٥/٥ وروي أيضاً عن ربيعة شيخ مالك . انظر السنة للالكائي: ٤٤١/٣ برقم ٦٦٥ .

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٥/٣ .

(٣) المصدر السابق: ٤/٤ .

قال البربهاري: "والمحنة في الإسلام بدعة، وأما اليوم فيمتحن بالسنة لقوله: إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون دينكم"[(١)] .

ومن الأمثلة على ذلك: ما أشار إليه ابن تيمية بقوله: "فالواجب الاقتصار في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية، وامتحان المسلمين به؛ فإن هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة .

فإنه بسبب ذلك اعتقد قوم من الجهال أن يزيد بن معاوية من الصحابة، وأنه من أكابر الصالحين وأئمة العدل، وهو خطأ بيِّن"[(٢)] .

٣) التعصب والانتساب الذي يفرِّق الأمة، وعقْد الموالاة والمعاداة على هذه النسبة .

قال ابن تيمية: "ولا ينصب لهم كلاما يوالى عليه ويعادى غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة؛ بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون"[(٣)] .

"وكذلك التفريق بين الأمة، وامتحانُها بما لم يأمر الله به ولا رسوله؛ مثل أن يقال للرجل: (أنت شكيلي أو قرفندي) فإن

(١) شرح السنة: ٥٥ .
(٢) مجموع الفتاوى: ٣/٤١٤ .
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٠/١٦٤ وانظر منه: ٤/١٤٦، ١١/٥١٤ .

هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله ﷺ، ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأئمة: لا شكيلي ولا قرفندي .

والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي ولا قرفندي، بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله .

وقد روينا عن معاوية بن أبي سفيان: أنه سأل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: أنت على ملة علي أو ملة عثمان؟

فقال: لست على ملة علي، ولا على ملة عثمان، بل أنا على ملة رسول الله ﷺ(١) .

وكذلك كان كل من السلف يقولون: كل هذه الأهواء في النار .

ويقول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم؛ على أن هداني الله للإسلام، أو أن جنبني هذه الأهواء .

والله تعالى قد سمّانا في القرآن: المسلمين، المؤمنين، عباد الله، فلا نعدل عن هذه الأسماء التي سمّانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم ـ وسموها هم وآباؤهم ـ ما أنزل الله بها من سلطان"(٢)

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى: ٣٥٤/١، ٣٥٥ برقم ٢٣٧، ٢٣٨ .

(٢) مجموع الفتاوى: ٤١٥/٣ .

٤) رمي واحد من المسلمين بالكفر أو البدعة دون بيِّنة .

قال ابن بطة: "والشهادة بدعة، والبراءة بدعة، والولاية بدعة .

والشهادة: أن يشهد لأحد ممن لم يأت فيه خبر أنه من أهل الجنة أو النار .

والولاية: أن يتولى قوما ويتبرأ من آخرين

والبراءة: أن يبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة"[١] .

وقد مثَّل لذلك ابن تيمية فقال:

"وأول من ضل في ذلك هم الخوارج المارقون، حيث حَكَموا لنفوسهم بأنهم المتمسكون بكتاب الله وسنته، وأنَّ عليا ومعاوية والعسكرين هم أهل المعصية والبدعة، فاستحلوا ما استحلوه من المسلمين"[٢] .

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة خاصة بالجدال في باب العقيدة وأصول الدين، وبذلك يخرج الجدال في باب الفقه والأحكام الفرعية .

---

(١) الشرح والإبانة: ٣٤١ . وانظر الاستقامة لابن تيمية: ١/١٣-١١٦

(٢) الاستقامة: ١/١٣ .

والفرق بين هذين البابين يوضحه الشافعي بقوله:

"إياكم والنظر في الكلام؛ فإن رجلا لو سُئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها، أو سُئل عن رجل قتل رجلا فقال: ديته بيضة؛ كان أكثر شيء أن يُضحك منه، ولو سُئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نُسب إلى البدعة"[١] .

وبهذا يعلم أن الجدال في أصول الدين إذا لم يكن في ذاته بدعة فهو مفض إليها .

قال بعض السلف: "إذا جلس الرجلان يختصمان في الدين فليعلما أنهما في أمر بدعة حتى يفترقا"[٢] .

وقال بعض الأئمة: "والسنة إنما هي التصديق لآثار رسول الله ﷺ وترك معارضتها بكيف ؟ ولِمَ ؟

والكلام والخصومات في الدين والجدال محدث، وهو يوقع الشك في القلوب ويمنع من معرفة الحق والصواب"[٣] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١١٣/٩ وانظر مناقب الإمام الشافعي للرازي: ١٠٠ .

(٢) الإبانة الكبرى: ٥٢٠/٢ .

(٣) الحجة في بيان المحجة: ٤٣٧/٢ .

قال ابن القيم: " الأحكام نوعان:

نوع لا يتغير عن حالة واحدة، هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة .

كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدَّرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك . فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وُضع عليه .

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له: زمانا ومكانا وحالا؛ كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوِّع فيها بحسب المصلحة"[1] .

القاعدة السادسة عشرة (١٦)

مشابهة الكافرين فيما كان من خصائصهم من عبادة أو عادة أو كليهما بدعة[2] .

ومن الأمثلة على ذلك[3]:

الامتناع من أكل الشحوم وكل ذي ظفر على وجه التدين تشبها بالكافرين .

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/٣٣٠-٣٣١ وانظر إعلام الموقعين: ٤/٢٦٢-٢٦٣ .

(٢) انظر أحكام الجنائز: ٢٤٢ .

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٤٢٢ والأمر بالاتباع: ١٤١، ١٤٦ .

ومن ذلك: موافقة الكافرين في أعيادهم ومواسمهم

قال الذهبي: "أما مشابهة الذمة في الميلاد والخميس والنيروز فبدعة وحشة"[1] .

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة والتي تليها خاصتان بنوع معين من المحرمات، وهو مشابهة الكافرين .

ويدخل تحت هذه المشابهة أمران:

الأمر الأول: مشابهة الكافرين في خصائصهم دون ما أحدثوه، وبيان هذا في هذه القاعدة .

قال ابن تيمية: "وأصل آخر، وهو أن كل ما يشابهون فيه من عبادة أو عادة أو كليهما هو من المحدثات في هذه الأمة، ومن البدع؛ إذ الكلام فيما كان من خصائصهم ...

فجميع الأدلة الدالة من الكتاب والسنة والإجماع على قبح البدع وكراهتها: تحريماً أو تنزيهاً؛ تندرج هذه المشابهات فيها؛ فيجتمع فيها: أنها بدع محدثة، وأنها مشابهة للكافرين، وكل واحد من الوصفين موجب للنهي"[2] .

---

(١) التمسك بالسنن: ١٣٠ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٢٣/١، ٤٢٤ .

والأمر الثاني: مشابهة الكافرين فيما أحدثوه مما ليس في دينهم، وبيان هذا في القاعدة التالية لهذه القاعدة .

والابتداع يقع بمشابهة الكافرين من جهة كونه خروجا على نظام الدين لأن التشبه بالكافرين أصل دروس الدين وشرائعه، وظهور الكفر والمعاصي، كما أن المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم أصل كل خير .

ولهذا عظم وقع البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشبه بالكفار فكيف إذا جمعت بين الوصفين![1]

ومن هنا كانت مخالفة الكافرين أمراً مقصوداً شرعا؛ إذ المقصود من إرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة[2] .

يوضح ذلك أن اليهود عرفوا باستحلال المحرمات وارتكابها بالحيل الباطلة، كما أن النصارى عرفوا بالغلو والزيادة في الدين على الحد المشروع، وكلا هذين الأمرين بدعة أو ذريعة إلى البدعة .

ولهذا كان السلف يقولون: "إن من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى"[3] .

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٣١٠، ٤٢٤ .

(٢) انظر المصدر السابق: ١/١٧٣، ١٨٢ والأمر بالاتباع: ١٥٠

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٦٧ .

ومما لا يدخل تحت مشابهة الكافرين أمران[1]:

أ ـ ما كان مشروعا في الشريعتين، أو ما كان مشروعا لنا وهم يفعلونه، كصوم عاشوراء أو أصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة في صفة العمل وكيفيته .

ب ـ ما لا يتصور فيه اختصاصهم به مما تقتضيه طبيعة الحياة واستقامة المعاش من العادات والصناعات .

القاعدة السابعة عشرة (١٧)

مشابهة الكافرين فيما أحدثوه مما ليس في دينهم من العبادات أو العادات أو كليهما بدعة[2] .

ومن الأمثلة على ذلك:

ما ذكره الآجري، إذ قال: "أكثر هذه الأمة، والعام منها تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين أو سنن كسرى وقيصر أو سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية والأكل والشرب والولائم والمراكب والخدام والمجالس والبيع والشراء والمكاسب"[3] .

---

(١) انظر المصدر السابق: ١/٤٢٠-٤٢٣

(٢) انظر الأمر بالاتباع: ١٥١ .

(٣) الشريعة: ٢٠ .

ومن ذلك: تقليد الكافرين فيما يسمى بالموضات والموديلات التي عمَّ بها البلاء في هذا العصر، ولا حول ولا قوة إلا با لله .

ومن ذلك أيضاً: موافقتهم في الاحتفال بالأعياد التي استحدثوها ولم تكن مشروعة في دينهم[1] ، كعيد الأم ويوم الصحة .

تنبيه مهم: مشابهة الكافرين في شيء من أعياد هم ولو كان العيد موسما دنيويا محضا تندرج تحت مشابهتهم في أمور الدين؛ ذلك أن العيد يجتمع فيه أنه شريعة وشعيرة، عبادة وعادة في آن واحد .

قال ابن تيمية: "العيد المشروع يجمع عبادة، وهو ما فيه من صلاة أو ذكر أو صدقة أو نسك، ويجمع عادة، وهو ما يفعل فيه من التوسع في الطعام واللباس"[2] .

ويكفيك بيانا لذلك أن تتأمل المفاسد المترتبة على مشابهة الكافرين عموما، ومشابهتهم في أعيادهم خصوصا، وهذا ما سيأتي التنبيه عليه في خاتمة هذه القاعدة .

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة تتعلق بمشابهة الكافرين في المحدثات التي أحدثوها، **والابتداع في هذا النوع من المشابهة يحصل من جهتين:** من جهة كونها محدثات بالنسبة للكافرين، ومن جهة كونها مشابهة .

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٢٣/١ والأمر بالاتباع: ١٥١

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٤٢٢/١ .

قال ابن تيمية: "... فإنه لو أحدثه المسلمون لقد كان يكون قبيحا فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط، بل أحدثه الكافرون، فالموافقة فيه ظاهرة القبح، فهذا أصل"[1] .

وبهذا يعلم أن مشابهة الكافرين فيما أحدثوه **يُنهى عنها من ثلاث جهات:** من جهة كونها محدثة في دينهم، ومن جهة كونها مشابهة، ومن جهة كونها محدثة في دين الإسلام .

تنبيهات حول مشابهة الكافرين:

التنبيه الأول: أن الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والآثار والاعتبار قد دلت على أن التشبه بالكافرين في الجملة منهي عنه، وأن مخالفتهم في هديهم مشروع: إما إيجابا وإما استحبابا بحسب المواضع .

مع أن هناك أمورا خصتها السنة بعينها بالنهي؛ كحلق اللحية وإعفاء الشارب .

التنبيه الثاني: أن مخالفة الكافرين من المقاصد الشرعية، ولذا فإن النهي عن مشابهة الكافرين يعم ما إذا قُصدت مشابهتهم أو لم تقصد .

ذلك أن مشابهة الكافرين - بقصد أو بدون قصد - تترتب عليها مفاسد اعتقادية وعملية . بيان ذلك في الآتي:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٤٢٣ .

التنبيه الثالث: في ذكر بعض المفاسد المترتبة على مشابهة الكافرين عموما وعلى مشابهتهم في أعيادهم خصوصا:[1]

١. **أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين** المتشابهين في الباطن على وجه المسارقة والتدريج الخفي، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، وهكذا .

٢ **أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر** حتى يرتفع التميز، فيزول الحاجز النفسي بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، وينصرم بذلك عقد الموالاة والمعاداة .

٣. أن التشبه بالكافرين من أسباب سخط الله، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : (اجتنبوا أعداء الله في عيدهم؛ فإن السخط ينزل عليهم)[2] .

ذلك أن أعيادهم معصية لله، فهي إما محدثة أو منسوخة، والمسلم لا يقر على واحد منهما[3] .

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٧٩-٨١، ٤٧١-٤٩٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/٢٣٤ .

(٣) انظر الأمر بالاتباع: ١٥٠ .

٤. أن مشابهتهم في بعض أعيادهم يوجب سرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل؛ فيرون المسلمين قد صاروا فرعا لهم في خصائص دينهم، وذلك يوجب قوة قلوبهم وانشراح صدورهم، وربما أطمعهم ذلك في انتهاز الفرص واستذلال الضعفاء .

٥. أن الأعياد والمواسم في الجملة لها منفعة عظيمة في دين الخلق ودنياهم كانتفاعهم بالصلاة والزكاة والصيام والحج، ولهذا جاءت بها كل شريعة، كما قال تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ .

ومما يلحق بمشابهة الكافرين:

القاعدة الثامنة عشرة (١٨)

الإتيان بشيء من أعمال الجاهلية، التي لم تشرع في الإسلام بدعة .

والمراد بالجاهلية ــ كما يقول ابن تيمية ــ "ما كان عليه أهل الجاهلية قبل الإسلام، وما عاد إليه كثير من العرب من الجاهلية التي كانوا عليها"[(١)] .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٩٨/١ . وانظر منه: ٢٢٦/١، ٢٢٧ .

ومن الأمثلة على ذلك:

١. ما جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[١] .

٢. ما جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ قال: (لا عقر في الإسلام) .

"وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد، يقولون: نجازيه على فعله؛ لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف، فنحن نعقرها على قبره؛ ليأكلها الطير والسباع فيكون مطعما بعد مماته كما كان مطعما في حياته"[٢] .

٣. إقامة الولائم ودعوة الناس إليها ابتهاجا وفرحا؛ يُفعل هذا استقبالا للمولود الذكر دون الأنثى، وهذا الصنيع فيه موافقة ظاهرة لأهل الجاهلية؛ فقد كانوا يستبشرون بالذكر ويحتفون به ويحتفلون له ﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به﴾ .

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٤/١-٢٠٧ . والحديث أخرجه مسلم: ٢٣٥/٦ .

(٢) الحوادث والبدع: ١٧١ .

توضيح القاعدة:

هذه القاعدة خاصة بأعمال الجاهلية المخالفة لهدي الإسلام وشرعته، وهي ملحقة بالقاعدتين السابقتين المتعلقتين بمشابهة الكافرين .

ومما يقرر هذه القاعدة ويجلّيها: أن أبا بكر الصديق ﷺ دخل على امرأة من أحمس يقال لها زينب، فرآها لا تتكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجَّت مصمتة . قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية . فتكلمت فقالت: من أنت؟ قال: امرؤ من المهاجرين . قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش . قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر(١) .

وقد علَّق ابن تيمية على هذا الأثر فقال: "ومعنى قوله (من عمل الجاهلية) أي مما انفرد به أهل الجاهلية، ولم يشرع في الإسلام .

فيدخل في هذا: كل ما اتُخذ عبادة مما كان أهل الجاهلية يتعبدون به، ولم يشرع الله التعبد به في الإسلام"(٢) .

أما ما جاء به الإسلام فإنه يُشرع فعلُه، ولو كان أهل

---

(١) أخرجه البخاري: ١٤٧/٧ برقم ٣٨٣٤ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢٧/١ .

الجاهلية يفعلونه، فيُؤتى به من جهة كونه مشروعا، ويفعل على الوجه المشروع .

مثال ذلك: "السعي بين الصفا والمروة، وغيره من شعائر الحج؛ فإن ذلك من شعائر الله وإن كان أهل الجاهلية قد كانوا يفعلون ذلك في الجملة"[1] .

* * *

(١) المصدر السابق: ١/٣٢٧-٣٢٨ .

١) عرضٌ مجمل لقواعد معرفة البدع

١. كل عبادة تستند إلى حديث مكذوب على رسول الله ﷺ فهي بدعة .

٢. كل عبادة تستند إلى الرأي المجرد والهوى فهي بدعة؛ كقول بعض العلماء أو العُبَّاد أو عادات بعض البلاد أو بعض الحكايات والمنامات .

٣. إذا تَرَكَ الرسول ﷺ فعل عبادة من العبادات مع كون موجبها وسببها المقتضي لها قائما ثابتا، والمانع منها منتفيا؛ فإن فعلها بدعة .

٤. كل عبادة من العبادات ترك فعلها السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم أو نقلها أو تدوينها في كتبهم أو التعرض لها في مجالسهم فإنها تكون بدعة بشرط أن يكون المقتضي لفعل هذه العبادة قائما والمانع منه منتفياً .

٥. كل عبادة مخالفة لقواعد هذه الشريعة ومقاصدها فهي بدعة .

٦. كل تقرب إلى الله بفعل شيء من العادات أو المعاملات من وجه لم يعتبره الشارع فهو بدعة .

٧. كل تقرب إلى الله بفعل ما نهى عنه سبحانه فهو بدعة .

٨. كل عبادة وردت في الشرع على صفة مقيَّدة، فتغيير هذه الصفة بدعة .

٩.كل عبادة مطلقة ثبتت في الشرع بدليل عام؛ فإن تقييد إطلاق هذه العبادة بزمان أو مكان معين أو نحوهما بحيث يوهم هذا التقييد أنه مقصود شرعا من غير أن يدل الدليل العام على هذا التقييد فهو بدعة .

١٠.الغلو في العبادة بالزيادة فيها على القدر المشروع والتشدد والتنطع في الإتيان بها بدعة .

١١.كل ما كان من الاعتقادات والآراء والعلوم معارضا لنصوص الكتاب والسنة، أومخالفا لإجماع سلف الأمة فهو بدعة .

١٢.ما لم يرد في الكتاب والسنة ولم يؤثر عن الصحابة ﷺ والتابعين من الاعتقادات فهو بدعة .

١٣.الخصومة والجدال والمراء في الدين بدعة .

١٤.إلزام الناس بفعل شيء من العادات والمعاملات، وجعْل ذلك كالشرع الذي لا يُخالف، والدين الذي لا يُعارض بدعة .

١٥.الخروج على الأوضاع الدينية الثابتة، وتغيير الحدود الشرعية المقدَّرة بدعة .

١٦.مشابهة الكافرين فيما كان من خصائصهم من عبادة أو عادة أو كليهما بدعة .

١٧.مشابهة الكافرين فيما أحدثوه مما ليس في دينهم من العبادات أو العادات أو كليهما بدعة .

١٨.الإتيان بشيء من أعمال الجاهلية، التي لم تشرع في الإسلام بدعة .

١٩.إذا فُعل ما هو مطلوب شرعا على وجه يُوهم خلاف ما هو عليه في الحقيقة فهو ملحق بالبدعة .

٢٠.إذا فُعل ما هو جائز شرعا على وجه يُعتقد فيه أنه مطلوب شرعا فهو ملحق بالبدعة .

٢١.إذا عَمل بالمعصية العلماءُ الذين يُقتدى بهم على وجه الخصوص وظهرت من جهتهم حتى أن المنكر عليهم لا يُلتفت إليه، بحيث يعتقد العامة أن هذه المعصية من الدين فهذا ملحق بالبدعة .

٢٢.إذا عَمل بالمعصية العوامُّ وشاعت فيهم وظهرت، ولم ينكرها العلماءُ الذين يُقتدى بهم وهم قادرون على الإنكار، بحيث يعتقد العامةُ أن هذه المعصية مما لا بأس به فهذا ملحق بالبدعة .

٢٣.كل مايترتب على فعل البدع المحدثة في الدين من الإتيان ببعض الأمور التعبدية أو العادية فهو ملحق بالبدعة؛ لأن ما انبنى على المحدث محدث .

* * *

٢) مجالات البدعة

بتأمل قواعد معرفة البدع وتدقيق النظر فيها يظهر جلياً أن الابتداع يدخل في أقسام متعددة، وإليك فيما يأتي بيان هذه الأقسام وما يندرج من هذه القواعد تحت كل قسم:

١.الاعتقادات .

(القاعدة رقم ١١، ١٢، ١٣)

٢.العبادات والقربات .

(القاعدة من رقم ١ إلى ١٠، ١٩)

٣.العادات والمعاملات .

(القاعدة رقم ٦ ، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٣)

٤.المعاصي والمنهيات .

(القاعدة رقم ٧ ، ٢١، ٢٢)، وانظر أيضاً:

٥.مشابهة الكافرين .

(القاعدة رقم ١٦، ١٧ ١٨)

هذا آخر مايسَّر الله بيانه، وصلى الله وسلَّم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدا؟ أم هل يكـــون ولـــداك اللذان هما بهذه المثابة او عبداك، او زوجتاك، عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السـياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينـوء بصـدره ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخـر ولا جـرم أن ألحـق بالقريـة الصالحة وجعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقـد اشـتد بـه العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم مـن ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء المـاء فـي خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرقي مـن البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخـف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاء أو شكورا فأحرقت أنوار هـذا القـدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيمياوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحـاس الأعمـال قلبـها ذهبـا والله المستعان).[١]

وقد فصل شيخ الإسلام معنى الإقرار والشـهادتين واسـتلزام ذلـك العمـل والانقياد بكلام نفيس سنورده او بعضه- في مبحث التولي عن الطاعة بـإذن الله- من الباب الخامس.[٢]

أهمية عمل القلب..

القلب هو موضع الإيمان الأصلي، وإيمانه أهم أجزاء الإيمان، ومن هنا كـان قوله وعمله هو أصل الإيمان ولا خلاف بين عقلاء بنـي آدم فـي إن كـل حركـة بالجارحة لا تكون إلا بإرادة قلبية وإلا فهي مـن تصرفـات المجـانين أو حركـات المضطرين فاقدي الإرادة -.

---

[١] مدارج السالكين .

[٢] وذلك في الصارم المسلول ، ص٥١٨-٥٢٢



فالقلب كما سبق في فصل حقيقة النفس الإنسانية ليس ملك الأعضاء فحسب، بل هو اعظم من ذلك إذ هو مصدر توجيهها ومنبع علمها وأساس خيرها او شرها فإذا كانت إرادته إيمانية كانت الأفعال العضوية إيمانا وإذا كانت إرادته إرادة كفر او نفاق او عصيان كانت تلك مثلها.

والنصوص في ذلك كثيرة، منها:

١. يقول الله تعالى في حق من حققوا الولاء والبراء: (**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**).[١]

٢. ويقول: (**ولكن الله حبب إليكم الإ يمان وزينه في قلوبكم**). [٢]

٣. ويقول في حق الأعراب: (**ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**).[٣]

٤. ويقول: (**وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم**).[٤]

وغير ذلك كالآيات الدالة على الطبع والختم على قلوب الكافرين او كونها في اكنة او مغلفة ونحوها.

وكل آية ورد فيها قوله: (بذات الصدور).[٥]

ومن السنة يقول النبي ﷺ : (التقوى هاهنا) وأشار إلى صدره ثلاث مرات.[٦]

ويقول: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).

ويقول كما روى الإمام احمد في المسند: (الإسلام علانية، والإيمان في القلب) وأشار إلى صدره ثلاث مرات قائلا: (التقوى هاهنا، التقوى هاهنا)[٧] ويقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).[٨]

---

[١] المجادلة : ٢٢.
[٢] الحجرات : ٧.
[٣] الحجرات : ٧.
[٤] آل عمران : ١٥٤.
[٥] وهي كثيرة، وتدل على ارتباط أعمال القلب بأعمال الجوارح لأنها كثيرا ما ترد في أعمال الجوارح .
[٦] رواه مسلم رقم (٢٥٦٤)
[٧] (١٣٥/٣)، وهو حديث حسن .
[٨] المسند، عن انس (١١٢/٣،٢٥٧)، وهو صحيح .



فهذه النصوص تدل على ان القلب هو الأصل، وان إيمانه هو جزء الإيمان الأساس الذي يقوم عليه الجزء الظاهر ويتفرع منه، ويرتبط به ارتباط العلة بالمعلول، بل ارتباط أجزاء الحقيقة الواحدة الجامعة، ومن هنا لم يسم المنافق مؤمنا قط وان كثر عمل جوارحه بالجهاد والصلاة.

بل المؤمن المجاهد إذا نوى بجهاده طلب الدنيا أو الرياء حبط عمله وتبدلت المثوبة في حقه عقوبة وعذابا، وهذا مما يدل على أهمية عمل القلب، وقد سبق تفصيل لذلك في فصل حقيقة النفس الإنسانية.

ومن العجيب أن المرجئة استدلت ببعض الأدلة السابقة على ان الإيمان هو مجرد التصديق القلبي، وان أعمال الجوارح بل بقية أعمال القلب- ليست من الإيمان، فها هو ذا الايجي في (المواقف) يذكر مذهب أصحابه الاشاعرة، وهو ان التصديق، ومذهب الماتريدية، وهو ان التصديق مع الكلمتين، ويذكر (مذهب السلف وأصحاب الأثر: انه مجموع هذه الثلاثة، فهو التصديق بالجنان،وإقرار باللسان، وعمل بالأركان).

ثم يقول في الانتصار لمذهبه: (لنا وجوه[1]:

الأول: الآيات الدالة على محلية القلب للإيمان نحو: **(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان)**، **(ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)**، **(وقلبه مطمئن بالإيمان)**، ومنه الآيات الدالة على الختم على القلوب ويؤيده دعاء النبي ﷺ: (اللهم ثبت قلبي على دينك) وقوله لأسامة وقد قتل من قال: لا اله إلا الله (هلا شققت عن قلبه!).[2]

والرد عليهم واضح فان النصوص الدالة على الجزء الباطن من الإيمان لا تنفي وجود الجزء الظاهر لا سيما ولهذا الجزء نصوص مماثلة وغاية ما فيها بيان أن إيمان القلب هو الأصل والأساس لإيمان الجوارح كما تقدم.

---

[1] انظر الى تصريحه بمذهب السلف وأصحاب الاثر ثم تصريحه بمخالفة أصحابه، ومع هذا يزعم معاصروهم انهم اهل السنة والجماعة او منهم !!!

[2] ص٣٨٥، ثم ذكر وجهين اخرين الرد عليهما واضح، وسيأتي في بابه .



ثانيا: ومن جهة ثانية هذه النصوص لا تدل على التصديق، بل على أمر زائد عنه، فما كتبه الله في قلوب المعادين لأعدائه وما زينه في قلوب المؤمنين وما نفى دخوله في قلوب الأعراب.. وهكذا ليس هو التصديق المجرد كما يحسبون وإنما هو أعمال قلبية كالمحبة والرضا واليقين ونحوها.

ثالثا: ومن جهة ثالثة يرد عليهم بان من تأمل هذه النصوص التي أوردها صاحب المواقف يجد أنها تدل على إيمان الجوارح بنوع من أنواع الدلالة، وان الإيمان المذكور في بعضها ليس هو الإيمان العام المقابل لكلمة (الكفر) والمرادف لكلمة (الدين) بل هو الإيمان الخاص المقابل لكلمة (الإسلام) إذا اجتمعا، أي على النحو الذي دل عليه الحديث السابق (الإسلام علانية والإيمان في القلب) ولا مجال للبسط اكثر من هذا.

ومن أفسد الأصول التي بناها المرجئة على هذا الاعتقاد أي انحصار الإيمان في التصديق القلبي وحده أنهم حصروا الكفر في التكذيب القلبي أيضا حتى انهم لم يعتبروا الأعمال الكفرية الصريحة كالسجود للصنم وإهانة المصحف، وسب الرسول ﷺ إلا دلالات على انتفاء التصديق القلبي، وليست مكفرة بذاتها[1] .

وكان لهذه العقيدة آثار عميقة المدى على الأمة، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير، ومنها نشأ التوسع في استخدام (شرط الاستحلال) حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف، وسب الرسول ﷺ وإلغاء شريعة الله، فقالوا : لا يكفر فاعلها إلا إذا كان مستحلا بقلبه !! واشترط بعضهم مساءلة المرتد قبل الحكم عليه، فان أقر انه يعتقد أن فعله كفر، وان قال :انه مصدق بقلبه ويعتقد أن الإسلام افضل مما هو عليه من الردة لم يكفروه[2] !!

---

(1) وهذا من الاصول الثابتة في مذهب الاشاعرة قديما وحديثا، انظر مثلا : المواقف، ص٣٨٨،وبراءة الأشعريين (١٤٩/١) ومن اعظم الرد عليهم ان الأشعري نفسه في المقالات(١٣٢/١،١٣٣،١٤١) ذكر هذه الاقوال نفسها عن فرق المرجئة، كالجهمية والصالحية والمريسية وهذا يدل على صحة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية مرارا، وما استنتجناه من بحثنا هذا وهو ان الاشاعرة على مذهب جهم والصالحي وان غيروا قليلا" .

(2) وغرضهم هو التثبت في اطلاق الكفر بزعمهم- وهذا الى أفعال الحمقى اقرب منه الى أفعال المتثبتين،والا فهل يذهب عاقل الى طاغوت محارب للشريعة او الى زعيم حزب شيوعي فيسأله هل يعتقد ان الإسلام افضل؟؟!!



وهذه جزء من قضايا كبرى لا يسعنا تفصيل الحديث عنها هنا، والغرض هنا التنبيه على إن أصلها العميق هو عدم أدراك العلاقة بين عمل القلب وعمل الجوارح.

إثبات عمل القلب..

لما كان إيمان القلب من الأهمية بالدرجة التي عرضنا طرفا منها كان لا بد أن يكون حظ الحديث عنه من الذكر الحكيم الذي أنزله الله لإصلاح حياة العالمين وتزكيتها هو الحظ الأوفر، وهكذا جاء في القران آيات كثيرة تبين أعمال القلب وأهميتها في الإيمان أصلا أو وجوبا أو كمالا ولو ذهبنا في جمعها واستقصائها لطال المقام جدا.

وحسبنا ان نورد هنا ما يتجلى به صحة مذهب أهل السنة الجماعة وشذوذ المرجئة المنكرين لدخول أعمال القلب في الإيمان عدا التصديق القلبي ويتضح ان مصدر القوم في التلقي لم يكن الكتاب والسنة، وإلا فكيف يضربون صفحا عن هذه الآيات المحكمات، ويعتمدون اكثر ما يعتمدون- على آية واحدة ليست في مورد الإيمان الشرعي، بل حكاها الله تعالى عن قوم قالوها في التصديق الخبري المجرد، وهو قوله تعالى على لسان اخوة يوسف: **(وما أنت بمؤمن لنا)**!!.

وهذه بعض أعمال القلب مقرونة بما يدل عليها من الآيات، منها ما هو في حق المؤمنين ومنها ما هو في حق الكفار دالا على أمور سوى التكذيب الذي لم يقر المرجئة بغيره- ونظرا لكثرتها اكتفيت بما ورد فيها العمل مسندا الى القلب او المصدر- بالمنطوق الصريح:

١. الوجل: **(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)**.[١]

٢. الاخبات: **(وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم)**.[٢]

---

[١] الانفال : ٢.

[٢] الحج : ٥٤.



٣. السلامة من الشرك دقيقه وجليله: **(يوم لا ينفع مال ولا بنون ۞ إلا من أتى الله بقلب سليم)**.[١]

وقال في امام الموحدين: **(إذ جاء ربه بقلب سليم)**.[٢]

٤. الانابة: **(من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)**.[٣]

٥. الطمأنينة: **(ولكن ليطمئن قلبي)**[٤]، **(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)**.[٥]

واشترطها في المكره **(إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)**.[٦] فكيف بغيره .

٦. التقوى: **(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)**[٧]، **(أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)**.[٨]

٧. الانشراح: **(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)**.[٩]، **(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)**.[١٠]

٨. السكينة: **(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين)**.[١١]

٩. اللين: **(ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)**[١٢]، وقد اسنده للقلب والجوارح.

١٠. الخشوع: **(ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)**.[١٣]

١١. الطهارة: **(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن)**[١٤]، وهي في آية الحجاب، فدلت على التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح .

١٢. الهداية: **(ومن يؤمن بالله يهد قلبه)**[١٥]، وهذا مما يدل على تلازم أعمال القلب

---

[١] الشعراء : ٨٨-٨٩.
[٢] الصافات : ٨٤.
[٣] ق : ٣٣.
[٤] البقرة : ٢٦٠.
[٥] الرعد : ٢٨.
[٦] النحل : ١٠٦.
[٧] الحج : ٣٢.
[٨] الحجرات : ٣.
[٩] الأنعام : ١٢٥.
[١٠] الزمر : ٢٢.
[١١] الفتح : ٤.
[١٢] الزمر : ٢٣.
[١٣] الحديد : ١٦.
[١٤] الاحزاب : ٥٣.
[١٥] التغابن : ١١.

١٣. العقل: **(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها)**.[١]

١٤. التدبر: **(أفلا يتدبرون القرءان أم على قلوب أقفالها)**.[٢]

١٥. الفقه: **(لهم قلوب لا يفقهون بها)**.[٣]

١٦. الإيمان: **(من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)**.[٤]

وفي الإيمان الخاص: **(قالت الأعراب ءامنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)**[٥]، ولهذا كان فيهم الصنف الذي سماه الله **(والمؤلفة قلوبهم)**.[٦]

١٧. السلامة من الغل للمؤمنين: **(ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءامنوا)**.[٧]

١٨. الرضا والتسليم: **(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)**[٨]، ويلاحظ ان الإسناد فيها للنفس لا للقلب او الصدر، لحكمه دقيقة هي ان النفس مكمن الهوى والاعتراض.

ومما ورد مسندا الى القلب غير المؤمن:

١. الإنكار: **(إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)**.[٩]

٢. الكبر: **(إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه)**[١٠]، **(كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)**.[١١]

---

[١] الحج :٤٦.
[٢] محمد : ٢٤.
[٣] الاعراف : ١٧٩.
[٤] المائدة : ٤١.
[٥] الحجرات : ١٤.
[٦] التوبة : ٦٠.
[٧] الحشر : ١٠.
[٨] النساء : ٦٥.
[٩] النحل : ٢٢.
[١٠] غافر : ٥٦.
[١١] غافر : ٣٥.

٣. الإعراض واللهو: **(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم)**.[١]

٤. الاشمئزاز: **(وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة)**.[٢]

٥. الزيغ: **(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)**[٣]، **(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه)**.[٤]

٦. العمى: **(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)**.[٥]

٧. القفل، وعدم الفقه، وعدم العقل: وقد تقدم ما يدل عليها.

٨. المرض: **(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا)**.[٦]

٩. القسوة: **(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)**.[٧]

١٠.الغمرة: **(بل قلوبهم في غمرة من هذا)**.[٨]

١١.الران: **(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)**.[٩]

١٢.العداوة للحق وأهله: **(قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر)**.[١٠]

والآيات في ذلك وعلاقته بأعمال الجوارح كثيرة ايضا، واكثر مما ذكرنا الآيات الواردة في أعمال القلوب، لكن لم يذكر فيها لفظه، كآيات الخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والرضا وغيرها.

وإنما المقصود إثبات هذا الجزء العظيم من الإيمان الذي أهمله أكثر المسلمين وليس المرجئة خاصة،وقد حصل المقصود ان شاء الله، وسنخص بالتفصيل بعض هذه الأعمال في المبحث التالي.

---

(١) الانبياء : ٢-٣.
(٢) الزمر : ٤٥.
(٣) الصف : ٥.
(٤) آل عمران : ٧.
(٥) الحج : ٤٦.
(٦) البقرة : ١٠.
(٧) البقرة : ٧٤.
(٨) المؤمنون : ٦٣.
(٩) المطففين : ١٤.
(١٠) آل عمران : ١١٨.

